سيناريو الظلام 2

المحقق السري

وائل رداد





فهرسة
مكتبة الكويت الوطنية أثناء النشر

813 قاسم ، وائل محمد صالح

سيناريو الظلام : المحقق السري الجزء الثاني وائل محمد صالح قاسم ط1 .الكويت :

دار سما للنشر والتوزيع , 2013

--- ص , 19.5 سم .

ردمك : 978-99966-55-21-0

1. القصة العربية - الكويت أ. العنوان

رقم الإيداع : 380 / 2013

تصميم الغلاف: صالح محمد

اخراج داخلى: محمد الزمزمي

نشر :

سما للنشرو التوزيع -- الكويت



المدير العام:

يوسف العبدالعيسى

www.Darsama-Kw.com

info@darsama-kw.com

Tel: +0096567076866

سيناريو الظلام : المحقق السري

مهمة (رَمَّاح) غير التقليدية في الجامعة الملكية قد بدأت..
هاهو ذا في السنة الدراسية الأولى, يتعرف زملاءه من الطلبة المرفهين في حفل الترحيب بالمستجدين, ورفاقه من ذوي المنح المجتهدين في السكن, ومدير الجامعة الشبيه بضابط «جستابو» محنك, ويستميت للحاق بمواعيد محاضراتٍ لدكاترة متغطرسين درسوا بالخارج ويطالبون بالاحترام دون بذل مجهودٍ لاكتسابه, ويحاول ألا يثير نقمة عميد كليته عليه, ويلتهم طعام الكافيتريا وحيدًا شبه منبوذٍ من باقي الطلبة, ويبتدئ مشروعه الخاص للتوقف عن التدخين, ويستعد للـ«كويزات» المفاجئة..
ويُعد قائمة المشتبه بهم!

وائل رداد

Opening

«كم من قفزة نوعية لطالب أبله أنهى دراسته الثانوية وانطلق في مغامرة العمر ملتحقا بركب الجامعة، قبل أن يتنبه إلى أن تلك الحياة الواعدة ما هي إلا أضحوكة سرابية !

كذبة لعينة كذبها على نفسه عندما حلم بالمدرجات والزميلات الجميلات اللواتي سيلاقيهن لينتقي منهن فتاة أحلامه، حفلات وأنشطة ممتعة في المسرح والمكتبة وحتى الحديقة، الصور شبه الأيقونية لطالب وطالبة يتظاهران بالمذاكرة أسفل شجرة وارفة الظلال تزقزق على أغصانها العصافير، وهما يتهامسان برومانسية «لعينة» عن المستقبل المبهج «اللعين» الذي ينتظرهما معا!

طعام الكافيتريا المُعد عن طريق مطاعم راقية، القاعات النظيفة مترامية الأطراف، والدكاترة الأنيقون الأجلاء، عالم الجامعة المثالي، فردوس العلم على الأرض..

كان الطعام جيدا لكنه بثمن، وبثمن مرتفع، والدكاترة الأجلاء كانوا كذلك حقا.. حتى تبدأ بطرح الأسئلة!

والفتيات.. آه منهن! يتصرفن كروبوتات باردة، منصرفات إلى الدراسة أو التظاهر بالهمة في الدراسة كي يزدن من عذابك.. هل الهوى حقيقي؟ أم أنه مفبرك فبركة الدراما العربية السقيمة؟

ومشاجرات الثانوية الصبيانية لحقت بك حتى الحرم الجامعي، بل وصارت أقسى وأصعب، فالشجار معناه الطرد سواء أكنت متورطا أم لا.. فلن ينقذك سوى منصب والدك!
طوبى للجامعة الاعتيادية المبنية للمواطن المطحون! حيث يمنحك والدك قبل انتقالك للسكن مصروفا بالكاد يكفي قوتك، ووالدتك قبلة الشوق والتشجيع، وتنطلق في رحلة عبثية حسبتها وردية.. حقا إن الجامعة ملاذ، ربما كانت سابقا للأحلام الوردية ورسم الخطط المستقبلية..
لطالما تخيلتُ الجامعة مدينة مستقلة بذاتها، حاكمها المدير، ووزراؤها الدكاترة، وأصحاب الثورة والمظاهرات رؤساء اتحادات الطلاب الذين لا يهمدون.. شعلة نشاط شبابية وسط الخمول الناضج لصناع القرار الأكبر سيناريوهات، مظاهرات، بيانات لأعمال فنية جنونية، مسارح لعروض كلها صراخ باسم حرية التعبير عن الرأي، الفن، الفن العميق، والعلم! هما أساس بنية التطور السليم، يخدعونك بعبارات جوفاء، بأمثلة فارغة، تلك الخدع القديمة المتعلقة بتطور أمريكا وأوروبا لابتعادهما عن الدين..
الحجاب مسموح للتظاهر بممارسة الحرية، حقا إن الجامعة تتماشى مع الموضة، كأن «الأخ الأكبر» مدير الجامعة يجالس شاشات متنوعة تعرض كلها قنوات إخبارية.. (CNN)، (BBC)، الجزيرة، العربية.. يطالع الموجز والتفاصيل قبل البدء باتخاذ القرار الحاسم التالي، رجل أعمال يعلم كيفية الحفاظ على ارتفاع أسهمه.. يجب أن يعلم كيفية الحفاظ على منصبه كذلك لإرضاء تلك الكائنات الفضائية الآتية من المجهول، الماسونية التي يقابلها في الظل، أحيانا على سماعة الهاتف، فرائصه مرتعدة، ومساماته تفرز مزيدًا من العرق.. نعم سيادتكم! حاضر سيادتكم! كما تشاؤون سيادتكم!
وعندئذٍ يخرج القرار الحاسم..

لن يخرج الصدر الأعظم شخصيا من غرفة التحكم بالجامعة كي يتلو على مسامعك قرار الكبار الذين يغلفهم الغموض، لا، ثمة عملاء صغار، مهمتهم تعليق الفرمان على لوح كي يطالعه الكل وينفذ دون مناقشة.. الاعتراض الوحيد يتم على خشبة مسرح هزلي أو لوحة تعبيرية تجريدية سريالية من ركام، يقف أمامها طالب مهووس بفنه كي يشرح لصحافة الجامعة وجهة نظره المتمثلة بجوع العالم الثالث، وإرسال القردة والكلاب للفضاء الخارجي!

ما يحدث في الحرم الجامعي يظل في الحرم الجامعي..

عبارة سمعناها في عشرات الأعمال السينمائية والتلفزيونية، أقصد مصطلح: «ما يحدث في.. يظل في..»! ثم ابحث عن المكان، في السجن، في مركز الشرطة، في ملجأ الأيتام، في «لاس فيغاس»!

في الجامعة..

عبارة مبطنة بالتهديد، لكن أفضل مكان لنسبها هي الجامعة.. البلد المستقل بذاته والشعب المستقل بذاته، صحافة الجامعة من وإلى الجامعة، حتى إن قناة إخبارية جديدة بدأت بثها التجريبي، قناة «الجامعة»! حيث تتجول مذيعة مبهرجة مع مصور أبله لنقل فعاليات بدء العام الدراسي وهِمة الطالب واستقلالية الطالبة، كيف يبلون في المحاضرات، وكيف أن الجامعة وفرت للجميع كافة سبل التعليم والأنشطة الرياضية والفنية.. شعار المحطة عبارة عن شمس مشرقة يتوسطها كتاب مفتوح وقلم حبر شفرة، شعار تقليدي ومبتذل للغاية!

المدير تراه في ذكرى تأسيس الجامعة فقط، لا تراه في عيد وطني ولا حتى عيد الشجرة، ولن تراه يتمشى صوب سيارته لأن مرآبه الخاص صُمم بمكر كي يدخل ويخرج من المبنى دون أن يدركه أو يلمحه أحد، كما لو كان شخصية سياسية هامة، أو مدير شعبة خطرة لأمن الدولة!

والدكاترة تراهم لكنك لا تتمكن من مناقشتهم حول غموض وطلاسم محاضراتهم التي يعجز (شام بليون) شخصيا عن فك رموزها، فإذا أعياك البحث في الكتب والمصادر في مكتبة الجامعة الشبيهة بسوبرماركت، كان عليك الاتصال بسكرتيرة الدكتور - لكل دكتور سكرتيرة عاهرة حسناء-، وطلب موعد كما لو كنت بصدد زيارة طبيب الأسنان!

وإذا حالفك الحظ وتفضل بمقابلتك باكرا لأن جدول مواعيده غير مزدحم، وجدت أن ما احتفظت به من قطع معلوماتية وقصاصات من الكتب قد أفادتك أكثر مما هرف لك به من ديموطيقية مبهمة!

في الجامعة لا أحد يصنع لك المستقبل، لا الطالبات الحسناوات التافهات ولا الدكاترة الأوباش ومحاضراتهم المملة.. أنت تصنعه، إما بالمكوث والجلد - بوجود تمويل مالي مستمر طبعا-، أو الرحيل بحثا عن جامعة أخرى، أو حرفة تعتش منها والسلام.. بالطبع هذه خياراتنا نحن التعساء من ذوي المنح والمساعدات الخيرية و.. والذين يعملون لصالح أمن الدولة!

أما الطبقة الأخرى التي ولدت ذريتها بملاعق من ذهب في أفواهها فلا خوف عليهم، بشهادة أم بدونها..

مستقبل غير مشرق؟ ربما، لكنه مجهول، وهذا الجميل في الموضوع، الحياة الجامعية كلعبة يا نصيب ، إما أن تربح الجائزة الكبرى أو تخسر كل شيء!»

ملاحظاتي لليوم الأول من السنة الدراسية الأولى

رَمَّاح المُسامِح

متاعب

الفصل الأول

كان جناب الدكتور المحاضر عن مادة Research Methodology يسير وكأنه يتريض في طريقه إلى قاعة المحاضرات، داخل مبنى الحرم الجامعي المقدس.. تحاشى إلقاء تحية الصباح على الطلبة الذين يلقاهم، لأن ذلك لا يليق بمكانته كمحاضر وعميد أيضا، أو أنها مظاهر هيبته المزعومة التي قرر فرضها بأية وسيلة على أولئك الفوضويين الذين يتظاهرون بالانضباط..

دنا أكثر من باب القاعة الكبير عندما شعر بخطوات أحدهم وراءه، وهو يهم بالولوج إلى داخل قاعة المحاضرات الواسعة والممتلئة طلبة وأحاديث لا تكاد تهدأ..

توقف في مكانه، ولوى عنقه كي ينظر للخلف، فوقع بصره على شاب حسن التكوين، قوي الشكيمة، وإن بدا شاحبا بعض الشيء كأنما عانى الأمرين من مشكلة ما، لا يهتم بتسريح شعره الفاحم ولا بأناقة هندامه، أو حتى بالالتزام بمواعيد المحاضرات كما يبدو..

سمعه يقول مرتبكا:

- صباح الخير يا دكتور (أنسي)..

لم يرد الرجل التحية بالطبع، بل حدَّجه بنظرات ملؤها الامتعاض قبيل تمتمته:

- (رَمَّاح المُسامِح)، أليس كذلك؟

- بالضبط..
- هل لي أن أعلم سبب وجودك خلفي بدل أن تكون أمامي بالداخل؟
- في الواقع أنا..
- وأين كنت أيام المحاضرات الثلاث الماضية؟
- وقع معي ظرف طارئ دفعني للتغيب يا دكتور، لذا أردت أن..
- ستكون مشكلتك عويصة معي يا فتى للأسف!
ودلف مكفهر الوجه ممتزج الحاجبين، فأدرك (رَمَّاح) أنه لن يحضر لليوم الرابع على التوالي، فهي السياسة الصارمة للدكتور (أنسي) التي لا يحيد عنها أو يتنازل، كما لو كانت حكما من أحكام الشريعة السماوية المنزلة..
سار جارا أذيال الخيبة معه برفقة طالب آخر ممتلئ قال له مستهترا:
- حظك حسن، فهو عادة يبادر بالصراخ كأن أحدهم شتم له عرضه!
- تبا له من مغرور متبجح!
- أوافقك الرأي تماما، بل وأزيدك من الشعر بيتاً ، أن عينيه على الزميلات! يبدو أنهن نقطة ضعفه الوحيدة!
- لاحظت ذلك أيضا، فهو يساعد الحسان منهن في كل شيء بحماسة منقطعة النظير، إن للكهل المنحط قلباً يخفق مثلنا كما يبدو!
- لا أستبعد أن يكون على علاقة بإحداهن..
- ليس إلى هذا الحد!
جلسا معاً على أحد المقاعد الخشبية الموزعة في حديقة الجامعة مترامية الأطراف.. كان (رَمَّاح) يعلم أن اسم زميله (زهير)، وراهن ذاته على أن الفتى لا يعرف اسمه هو، لكن هذا لم يشغل تفكيره كثيرا، فهو لا يسعى للتعارف..
وضع الشاب الممتلئ في فمه سيجارة، فسارع (رَمَّاح) إلى صنع المثل قبل تلقيه ضيافة مكرهة منه..
- «أعتقد أنه الفصل الأخير بالنسبة لي في تلك الكلية، سأغير التخصص..»

- «للاقتصاد قطعا..»
- «لا.. أحتاج لما هو شاعري أكثر من الحاسوب والاقتصاد، ربما ستكون كلية العلوم السياسية أو الإعلام!»
- «تبدوان لا بأس بهما..»
انقلبت نبرته لحماسة:
- أليس كذلك؟ على الأقل سأنجو من سحنة (أنسي) المكفهرة على الدوام..
- سيكون من الرائع أن أنجو أنا الآخر..
- لا تبدو صاحب القرار النهائي في كل شيء..
- ليس بالضبط.. أجد نفسي في الأدب الإنجليزي، لكن (أنسي) جعلها كلية لا تطاق بالنسبة إليّ..
- أنت تقطن السكن المخصص لطلبة الجامعة، أليس كذلك؟
- أجل، هل أنت معنا؟
- لا، أنا آتي وأرحل بالحافلة، أجواء سكن الجامعة مناسبة لكل شيء عدا الاستذكار!
- معك حق..
- أرى أحد الدكاترة يقترب، اخفِ سيجارتك عن الأنظار بسرعة!
صنع (رَمّاح) كما قال زميله، وما إن ابتعد الرجل حتى عاودا التدخين بصورة طبيعية..
قال (زهير) بفتور:
- لستُ بحاجة لشهادتهم في الواقع، فشقيقي الأكبر وأنا نملك محلا للهواتف النقالة وإكسسواراتها، وهو يدرّ علينا ربحا وفيرا..
- ومع ذلك فالشهادة مهمة..
- هل سمعت حكاية الرجل الذي ضرب جرة العسل المعلقة فوق رأسه بعصاه وهو يحلم بالثراء؟
وألقى عقب السيجارة التي أنهاها على العشب باستهتار تام، وقال وهو

ينهض حاملا كتبه ووزنه الزائد:
- سررتُ بهذه المحادثة، أرجو أن تصمد مع (أنسي) الشيطان لحين خلاصك منه نهائيا!
ورحل تاركا (رَمَّاح) يتأمل العقب الذي لم ينطفئ.. تصاعد خيط رفيع من الدخان، فنهض واجما ليسحق العقب بقدمه قبيل حدوث كارثة وهو يقول لنفسه:
- بالتأكيد، أوليس مهملا؟
كانت محاضرته القادمة عقب ساعة، فقرر الذهاب إلى حجرته في السكن وتمضية الوقت هناك.. سار بخطوات سريعة متأملا بضيق جموع الطلبة المتضاحكة، لمح من بينهم طالبة داعب حُسنها مخيلته، فتخيل تعلقها الشديد به فقط لأنه شخص عادي للغاية!
وعندما بلغ السكن سمع صوت غناء نشاز، فأبصر البستاني العجوز يسقي الشجر من خرطوم ماء، وعقيرته ترتفع بذلك الغناء المضحك بلا تحفظ، فلم ينجح (رَمَّاح) في كبح جماح بسمته..
لم يحدث وأن رأى ذاك البستاني حزينا أو غاضبا، وكثيرا ما أثار ذلك عمق حيرته وإعجابه معا..

****

بلغ باب حجرته الواقع في منتصف الممر على اليمين، فأولج مفتاحه في شق القفل الصغير محركا إياه.. لم يستجب أحدهما لسبب ما، فأخذ (رَمَّاح) يطرق الباب بخشونة قائلا:
- (بكري)؟
وبقي على حاله تلك لدقيقة كاملة قبل تحرر القفل من تلقاء ذاته، وانفتح الباب ليظهر على عتبته شاب داكن اللون قصير نوعا ما، أسنانه بارزة بعض

الشيء، وشعره غزير أكرت وكثير القشرة بصورة واضحة..
تثاءب لدرجة أن (رَمَّاحا) استطاع – مشمئزا- لمح بقايا الطعام عالقة بين أسنانه الفاضحة لتدخينه الشره، يرتدي «فانلة» مجعدة بشدة و«شورت» رياضي، قوي البنية بصورة ملحوظة، و(رَمَّاح) يدرك أنه فتى لا بأس به رغم عاداته المزعجة..
قال وأصابعه تنقب عن العمش في عينيه:
- صباح الخير يا زول..
- أذان العصر رفع قبل ربع ساعة!
- جيد ، معنى ذلك أن «كافيتريا» الجامعة لم تغلق بعد!
- أتمنى رؤيتك داخل مبنى الجامعة لأهداف غير الأكل والفتيات..
- تعني لأهداف غير تلك التي تستحق أن نحيا لأجلها؟!
وتبسم بتهكم ناعس متناولاً سيجارة كانت معلقة خلف أذنه، فتجاوزه (رَمَّاح) للداخل قائلا له:
- على الريق؟ اغسل وجهك على الأقل يا أخي..
- البارحة كانت معركة حامية الوطيس في لعبة الورق..
تساءل (رَمَّاح) وهو يزيل بتقزز ثوبا داخليا يخص (بكري) من على غطاء سريره:
- من الذي انتصر؟
- أهذا سؤال يوجه للملك يا زول؟
والآن أنت مدعو على حسابي في «الكافيتريا» بمناسبة النصر المؤزر..
- بل اذهب أنت مصحوبا بالدعوات القلبية، أريد أن أرتاح لبعض الوقت..
تبسم (بكري) وهو يخلع ثيابه على عجل قائلا:
- أرجو ألا تكون سلطة الملفوف قد نفدت من عندهم!
كان الآن يقف عاريا إلا من «الشورت» الرياضي المجعد، وهو ينقب بصخب داخل خزانته عما يصلح للارتداء.. وتساءل أثناء قيامه بذلك:

- ألديك مشاريع لهذه الليلة؟

- لا أظن، لماذا؟

- أريد أن أعرفك على أحدهم..

- ماذا تقصد؟

- كن جاهزا تمام الساعة الثامنة، إنها مفاجأة!

- إذاً ستعرفني على إحداهن..

- كيف تأتى لك إفساد المفاجأة يا زول؟

- أنت أحمق لو افترضت قدومي معك، لستُ عابثا مثلك وأنت خير من يعلم..

- أنت لم تذق مع الأسف طعم الحياة الحلو بعد، ألم تلاحظ ذلك لغاية الآن؟

- لدي مهمة محددة، أنوي إنجازها بنجاح ومن ثم العودة..

- لم نقل شيئا، لكن لبدنك عليك حقا! وأنت تعذبه طيلة الوقت..

- ألم تلحظ يا (بكري) أني في حالي وبأنك رفيق السوء الذي يحاول إفسادي دائما؟

- إنه الذنب الأزلي وعلى أحدنا تحمله! آآآي!

وفرغ من ارتداء ثياب غير لائقة، فقال قبل أن يخرج:

- اليوم الساعة الثامنة مساء، في حال غيرت رأيك المتعنت..

وأغلق الباب خلفه، فرقد (رَمَّاح) على سريره بالحذاء، شاعرا بإجهاد رغم عدم مواجهته ليوم شاق.. إنه التكاسل والتقاعس عن أداء المهمة المحددة التي قدم لانجازها بنجاح ومن ثم العودة!

كانت المحاضرة القادمة هي Computing Fundamental، محاضرة دكتور (مالكي) الذي يطالب بالاحترام المدرسي القديم الذي لا يستحقه، لو كان الأمر بيده لدخل عليهم حاملا خيزرانة! فقرر تفويت المحاضرة اليوم لنيل قسط أوفر من الراحة..

ما إن وضع ساعده على عينيه حتى تعالت أصوات لطرقات صاخبة على الباب، ثم - وعلى الفور- فتح ليدلف (أبو فياض) مشرف السكن الفظ، الذي

شاب شعر رأسه من شدة الأهوال التي لقيها من فتية السكن الأشقياء!
كان بادي الغضب، وعندما تكلم حملت لهجته التهديد مع الحنق:
- إطارات سيارتي!
- مالها؟
- هل أنت من قام بتفريغها من الهواء؟
- أنا؟ سامحك الله!
- أعدك ألا تفلت من العقاب إذا ما كنت الفاعل!
وهرع للخارج باحثا عن شاب آخر يلصق به التهمة، وقد ترك باب الحجرة مفتوحا على مصراعيه..

****

خرج (رَمَّاح) هو الآخر بعدما أوصد الباب بالمفتاح – الذي ينجح بإقفاله دائما وليس بفتحه-، وقد طارت فكرة النوم من رأسه، ففكر بالذهاب إلى مكتبة الجامعة كي يطالع قليلا حتى موعد المحاضرة التي قرر أخيراً حضورها..
كانت المكتبة خالية إلا من طالب عكف على تصفح الجرائد بلا اهتمام، فوضع (رَمَّاح) دفتر المحاضرات والمراجع على إحدى الطاولات، وسار لانتقاء ما يمكن الاستمتاع بقراءته.. وجد في قسم التاريخ كتابا عن أشهر القادة في التاريخ، فتناوله واتجه إلى طاولته التي انتقاها كي يجلس، وعندما فتح الكتاب – من منتصفه تقريبا-، طالعته صورة (موشي دايان) بعصبة القراصنة السوداء على عينه اليسرى!
ابتدأ يقرأ ببصره، لكنه سمع صوتا محتدا يخاطبه بقوله:
- لو سمحت..
رفع وجهه عن صفحات الكتاب ليجد أمين المكتبة واقفا أمامه، وبيديه

يحمل مرجعا طبيا هائل الحجم لوح به بصعوبة..

- «لماذا مزقت الصور؟»

تساءل (رَمَّاح) حائرًا:

- أية صور؟

وضع الرجل المرجع على الطاولة بصخب، وفتحه على صفحات ذات مواضع مفتقدة لبعض الصور التي قام أحدهم بالاستيلاء عليها طبعا.. كان مرجعا بريطانيا يتضمن دروسا عن طرائق صحية في المعاشرة الزوجية، وبالطبع كانت هنالك بعض الصور اللافتة للنظر!

قال أمين المكتبة بغيظ واضح:

- العلم علم! متى تكفون عن ممارسات المراهقين السخيفة هذه؟ احترموا العلم يا أخي!

كان غاضبا أكثر منه متهما، فقد قام بسحب المرجع عن الطاولة والانسحاب عائدا إلى مكتبه، فعاود (رَمَّاح) القراءة متناسيا أمر ذلك الرجل لدقائق أدرك بعدها صعوبة ذلك، فقرر المغادرة بسرعة قبل أن تجتاح عقله فكرة الرد بالشتم أو الضرب..

شعر بانتعاش لبرودة الممر الطويل الذي سار فيه بعد خروجه من المكتبة.. وعندما خرج إلى الحديقة لتنفس الهواء النقي، ولمح من بعيد البستاني العجوز الذي لا يزال يغني وهو يقوم بعمله، تمنى من أعماق قلبه أمنية واحدة خالصة.. تمنى لو أنه كان ذلك البستاني!

الفصل الثاني

«لا أدري هل أنا في جامعة أم في مجمع تجاري!

صحيح أنها الجامعة الملكية، وغالبية الطلبة هنا من ذوي الرفاهية والدلال، صحيح أن سياراتهم من الأنواع التي لا نراها إلا في «كتالوجات» عالم السيارات، وهواتفهم النقالة تتبدل سنويا، لكن الأمر زاد عن حده في طرائق تصرفاتهم، لبسهم، أحاديث النميمة والغيبة، والكثير الكثير من المجاملات والنفاق والتملق الماكر!

لكن بعض الطلبة والطالبات لا بأس بهم على الإطلاق..

تعرفت الأحمق (بكري) في السكن، يدرس في كلية الاقتصاد، طيب لكنه غير نظيف، يحب السهر كثيرا ولكن ليس للدراسة، حيث ينشط ليلا كوطواط شغوف بمص الدماء، وفي النهار يختبئ في كهفه كالغائب عن الوعي، حتى محاضراته لا يهتم بحضورها..

بصراحة، أظن الفتى يتعاطى شيئا!

(أبو فياض) الوغد حذرني منه كثيرا، الرجل شاب شعر رأسه من ممازحات الطلبة، في مرة من المرات فقد أعصابه مع أحدهم وتشابكا بالأيادي، صحيح أن مشرف سكننا مزعج، لكنه رجل كبير في السن، لذا تدخلت في المشاجرة قليلا..

في الجامعة أوجدوا العميد اللعين (موفق توفيق) لدفعنا إلى الانتحار، فهو لا يقدم لنا خدمة تذكر كعميد، رجل يفضل ارتداء الألوان العجيبة، ويحب أكثر تملق مدير الجامعة والدكاترة!

كان لدينا دكتور أمريكي مغفل لكنهم طردوه بتهمة السكر - أخيرا صنع العرب معجزة ما بأمريكي!-، وإن لم أعتقد أن الطرد كان المصطلح المستخدم.. لربما ترجوه أن يتنازل ويختار جامعة أخرى للتدريس، مع وعد بدفع مكافأة فوق العلاوة والمستحقات!

والمدعو اللعين (مالكي) ليس أفضل حالا! إنه متأمرك! بل هو أسوأ! رجل لا يقدر ظروفك، ويعاملك كطالب المدرسة الابتدائية، تصور أنه يطلب منا كطلبة جامعة الوقوف كلما ولج القاعة؟!

وأخيرا – وليس آخراً- (أنسي).. عِلة الدكاترة! من كبار الأوباش! لم أحضر لغاية الآن أية محاضرة له، والسبب هو منعه دخولي رغم سيري المباشر وراءه! أرحم الدكاترة هو – صدق ولا تصدق- دكتور فرنسي! رجل متواضع ومرح بكل معنى الكلمة، يحب المساعدة ويكره فكرة سرد تعداد الشهادات التي حصل عليها زملاؤه الدكاترة من الخارج أمام طلبتهم!

اليوم اجتمع بنا مدير الجامعة المدعو (عاصم) في قاعة الاجتماعات الجامعية الخاصة، حيث رحب بنا أحر الترحيب، رجل هزيل هو، أصلع يرتدي نظارات طبية تجعله أشبه برجل» جستا بو» محنك! من النوع الذي لا يروق للمرء، يبدو أفاقا! بدلته باهظة، وسيارته تسمح بتسديد أقساط دراستي للأبد! أعلن أن حفلة الترحيب بالطلبة ستكون يوم الخميس الساعة السابعة مساء، وطلب من الجميع ارتداء ثياب لائقة، سمعت تهامسا بشأن تلك الثياب، وأدركت أنها بدل بربطات عنق أو «بابيونات»..

وهذا ذكرني بأني لاأملك واحدة، لذا أرجو من سيادتكم مساعدتي في توفير بدلة مناسبة للحفل، حيث سيتسنى لي تعرف غالبية الطلبة، وتكوين فكرة أوسع نطاقا عن المشتبه بهم..

هذا إذا ما أردتم طبعا!»

ملاحظاتي لليوم العاشر من السنة الدراسية الأولى

رَمَّاح المُسامِح

الفصل الثالث

كان الدكاترة يمضغون الكلام مضغا باستعلاء عجيب..

وعندما حضر (رَمَّاح) المحاضرات أول مرة حاول كأي طالب مجد يبذل أقصى جهده للتركيز وتدوين كل هفوة تخرج من حنجرة الدكتور المحاضر..

الآن صار يراقب ردود أفعالهم، انفعالاتهم، متى يضحكون ومتى يغضبون..

دكتور الجامعة شخص يعاني الأنانية الموثقة بشهادة غربية من الخارج، «الأنا» لديه مغذاة بصورة طيبة، يتحدث عن نفسه بأسلوب الغائب..

الدكتور (بطيخ) أرفع من أن يصنع كذا، المعلومة لدى الدكتور (بطيخ) بمثقال ذهب....الأخ كما لو كان يمتدح أسطورة تاريخية، يظل يتحدث عن نفسه بذلك الأسلوب المستفز، وكأنه شيء ثمين معلق في سقف السماء، لا تطاله ديدان الأرض البشرية الجاهلة..

يرفض توجيه سؤال له، ويحتد لدى المقاطعة، ويجن لو دخل وراءه طالب متأخر، فإذا أردت مناقشته عقب انتهاء المحاضرة أمرك بأخذ موعد من سكرتيرته ومضى في سبيله..

في الثانوية، في جميع مراحل الدراسة قبل الجامعة بالأحرى، كان يكن احتراما عميقا لأساتذته الأجلاء، أولئك الكهول الذين أفنوا حياتهم وبمرتبات ضئيلة من أجل إيصال معلومة واحدة قيمة يفيد منها الطلبة،

تحملوا الضرب والإهانات من الطلبة المارقين، وطبعوا مذكرات للدراسة على حسابهم، وأدبوا سواء باللسان أم بالعصا فأحسنوا التأديب..
أولئك كانوا رسل العلم بحق، لا هؤلاء البلهاء الذين لا يمتلكون سوى الحذلقة والترهات، والبدلات الغالية الأنيقة، والسيارات الفارهة، والسكرتيرات الحسناوات..

****

تصاعد لحن مكتوم لهاتف نقال، فنهض (رَمَّاح) من على سريره متثاقلا، واتجه للمكتب حيث فتح الدُرج ليخرج الهاتف من أسره..
تثاءب أولا، وضغط زر المحمول ثانيا، ثم قال ببلادة:
- نعم؟
- نعم الله عليك! مذ ابتدأت الدراسة لم أتلق منك ولا مكالمة!
تعرف صوت المقدم (يوسف زيدان الإدريسي) على الفور، - ومن غيره؟- فتمالك نفسه، وقال متجها ناحية الكومودينو بحثا عن علبة سجائره:
- لكنني لم أنقطع عن المراسلة..
- هذا ما أردتُ الحديث بشأنه..
خيل لرَمَّاح أن نبرة (الإدريسي) قد ازدادت قوة، كانت تحمل في طياتها التهديد، الرجل كان غاضبا، لكنه لا يظهر ذلك!
سمعه يقول بلهجة منذرة:
- مراسلاتك التافهة لا تعنيني في شيء يا غلام! خواطرك وإحباطاتك مخلوقة لك وحدك، فلا تحاول مشاركتي بها مرة أخرى!
«غلام» مرة أخرى.. لكم يكره تلك اللفظة المهينة بالنسبة له!
دمدم بعبوس:
- ولكن..

- أعطيتك المحمول لسبب وجيه، ليس لمحادثة الفتيات، ولا لمحادثة أهلك! عليك الاتصال بي في نهاية كل يوم، سواء أثمة تقرير أم لم يكن.. فهمت أم أعيد وأكرر كالببغاوات؟
تنفس (رَمَّاح) بعمق، وبدل أن يصرخ ويشتم ويقفل في وجه الرجل، أجابه بخضوع حانق:
- فهمت..
لان صوت (الإدريسي) قليلا، فقال برزانة:
- تذكر يا غلام، والدتك امرأة مريضة، وشقيقك التعس لن يساعدها في مصاريف السكن والأكل والشرب وفواتير الكهرباء، تذكر أنني الوحيد الذي يساعدك، فالتزم بالقوانين من الآن فصاعدا.. مفهوم؟
- مفهوم..
-أكره أن أهاتفك لأخبرك في المرة القادمة أن مهمتك قد انتهت دون تحقيق النتائج المطلوبة، فهذا.. لنقل سيظل كلطخة حبر مخلدة في سجلك المدني.. مفهوم؟
- مفهوم يا.. بيك!
- إذاً.. أثمة شيء؟
- ليس من أولها!
- معك حق، تذكر أنك شاب اجتماعي، لا تلعب ألاعيب الانطواء السخيفة، يجب أن تتعرف الكل، تصادق الكل، يجب أن تصير بئر أسرارهم ومنبع ثقتهم!
- مفهوم..
- تابع العمل الجيد، وأنتظر منك مكالمة غدا..
اختفى صوته البغيض أخيرا، وكاد (رَمَّاح) أن يلقي بالمحمول عرض الحائط، ويستمتع برؤيته مفتتا لعشرات القطع، لكنه أحجم مرغما، فأعاده لمكانه بغصة وهو يهمس كأنما يخشى أن يبلغ صوته الإدريسي:
- تبا لك أيضا!

الفصل الرابع

سهرة ليلية كانت في إحدى غرف سكن الجامعة..

الليل بمنتصفه، والأفواه مطبقة على السجائر ذات الدخان المنتشر كالسحب، ومن ثم تتحرك الشفاه المختلفة للسرد بقصد الإخافة قبل التسلية..

يقول (حفيظ) العماني فاردا ذراعيه في الهواء:

- ثمة طريق جبلي وعر، طريق تتلاشى القطعان عندما تمر بقربه، والويل لابن آدم تعس ، قرر السير فيه ليلا!

فيتساءل الشبان بعيون جاحظة:

- لماذا؟

خرج الدخان من منخريه مجيبا:

- العلم عند الله!

- حكاية سخيفة.. هاتِ ما عندك يا (سالم)!

يتنحنح (سالم) اليمني متظاهرا بالتواضع، ثم يلق ما بجعبته من هراء:

- ثمة كهف، كهف في الجبال اعتبره الناس منذ عهد (بلقيس) بوابة، وإلى يومنا هذا لا زالوا يمطرونه باللعنات..

- بوابة؟ إلى أين تؤدي؟

يمتص مزيدا من الدخان عبر العقب، ثم يرد تاركا إياه يخرج بعشوائية مع كلماته:

- إلى مملكة الجراجيف .. المردة منها!
- حكاية طفولية.. هاتِ ما عندك يا (عبد الرحمن)!
قال (عبد الرحمن) – اليمني أيضا- ويده تربت على كتف (رَمَّاح):
- اليوم أود سماع ضيف جلستنا العزيز، ما دام قد أتى للمرة الأولى إلى هنا فعليه سرد حكاية ما.. حكاية حقيقية ومرعبة!
وتحولت صفحة وجه (رَمَّاح) المحمرة إلى شاشة مراقبة، كان (بكري) السوداني معه، وقد رمقه بنظرات مشجعة، فقال مبتلعا ريقه بصعوبة:
- سأقص عليكم ما حدث معي عندما وجدت كلمات الاستدعاء..
تساءل أحدهم مستهزئا:
- عن أية كلمات استدعاء تتحدث؟
حدَّجه ببرودة مجيبا:
- عن تلك التي وردت في كتاب الغزال!
شده أكثرهم وكأن مشرف السكن قد ضبطهم، ودمدم (عبد الرحمن) بنبرة تساؤل:
- كتاب الغزال دون سواه؟
- أتريدني أن أحلف لك؟
وانتفخت أوداج (رَمَّاح) لما طالع التلهف في أعين الجميع، في حين أردف (عبد الرحمن) والشوق متبدٍ في مقلتيه فقط:
- هاتِ ما عندك!
- أتاني صديق قديم في أحد أيام المرحلة الثانوية، فناولني ورقة مطوية حكى لي عنها أغرب حكاية.. كنت آنذاك بالمرحلة الثانوية، وقد تلفت (سكبو) – صديقي القديم- حوله بحذر كتاجر للممنوعات قبل أن يناولني وريقة مطوية..
لم آخذها على الفور، بل سألته بملل:
- وما هذه أيضا؟

- افتحها وسترى!
تناولتها وفضضتها، ولما طالعت سطورها لم أتمكن من كتمان ضحكتي..
قلت له إنه يمزح حتما، فاكفهر وجهه وهو يهتف بحماسة:
- إياك والاستخفاف حتى ولو تبدت الكلمات مضحكة إلى هذا الحد!
وبصراحة وافقته في سري.. الكلمات والعبارات التي يتلفظ بها الحواة والسحرة والتي تبدو لنا مضحكة، هي في الحقيقة تحمل معان أعمق وأخطر.. «أبرا كادابرا» على سبيل المثال تحمل تفسيرا باطنيا للتلمود، وتعود إلى طائفة تزعمها الفيلسوف (بازي ليديس) في النصف الأول من القرن الثاني الميلادي، وتعني: «الكائن الأعلى»، وذكر أنها تتيح اللقاء بالشيطان!
بالطبع لم تكن الكلمات المدونة في الوريقة قريبة من «أبرا كادابرا» حتى، كانت أقرب إلى «جلا جلا» التي نسمعها كثيرا في الأفلام المصرية!
قلت لسكبو إنه يضيع وقته ووقتي في ترهات، لكنه لم يفقد حماسته، وجلس إلى جواري ليقول بلهجة تحمل عبق الخطورة:
- استمع إلى قصة هذه الكلمات أولا وبعدها كن الحكم!
حكى عن الفيلا الشبيهة بقصر مهجور على التلة، وعن السبب وراء هجرها..
أخبرني عن صديقه الذي قطن تلك الفيلا يوما مع عائلته، وعن الأهوال التي حاقت بشقيقه الأكبر ورفاقه في الليلة التي قرؤوا بها الكلمات الملعونة..
أخبرهم الصديق - الذي جلب الكلمات من مصدر لم يفصح عنه- بأنها مخصصة لاستدعاء الشياطين المخربة، تلك التي تهوى إثارة الجنون بالرؤى ذات الطابع المهلوس، فازداد بذلك ضحك الرفاق وعدم تصديقهم لذلك، فكان لا بد من التجربة..
في المقطع الأول تجد قِسما من رسالة سيدنا (سليمان) التي أرسلها مع الهدهد إلى (بلقيس) ملكة سبأ: «إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن

الرحيم..»، وقد اختلف كثيرون حول موضوع البسملة في رسالة تحوي كلمات لاستدعاء شياطين كافرة..

المقطع الثاني لا أتذكره بالكامل، فقط السطر الأول، وهو حاو لكلمات بالسريانية..

يُقرأ المقطع الثاني بأعلى صوت غيبا، وعندما تفرغ من تلاوته تقوم بإلقاء غرض ما – مفتاح أو قلم مثلا- خلف كتفك الأيسر، فإذا نظرت للوراء ووجدت بأن الغرض الملقى قد اختفى فاعلم أن الشياطين قد حضرت!

وجرب الأصدقاء الأمر، ومن يومها والفيلا مهجورة!

- «ما الذي أصابهم؟»

كذا تساءل (عبد الرحمن) متلهفا، فأجاب (رَمَّاح):

- الشقيق الأكبر لقي حتفه على الفور، والبقية فقدوا عقولهم ما عدا واحد، والعهدة على راوي الحكاية وهو الشقيق الأصغر حسب زعم صديقي، وبناء على إلحاح منه أعطاه ورقة الكلمات..

- يبدو وأنه يكره صديقك عظيم الكره!

- ادعى صديقي أنه سيعرضها على شيخ متفقه في أمور الشياطين والجان..

- ألا وهو أنت!

- أنا أهوى هذه الأشياء فحسب!

- والكلمات، أهي معك؟

- كانت..

- ولم تجربها قبلا؟

بدا (رَمَّاح) ساهما لوهلة قبل أن يجيب كذبا:

- ولا مرة..

قالها متذكرا ليلة تجربة تلكم الكلمات الملعونة، في الواحدة بعد منتصف الليل.. ثم مطاردات وجه تلك الحسناء ذات الوجه الشاحب له.. الذي

احتمل زرقة الموت ونذيره المروع في عينيها الرماديتين المروعتين!
ظلت بضع ليال تزوره من خلال نافذة غرفته لتلصق وجهها هنالك وتتنفس، فكان يزدرد لعابه مرددا طيلة الوقت أنها مجرد هلاوس!
- «جبان!»
قالها (عبد الرحمن) ساخرا، فردَّ (رَمَّاح) بوجل:
- حقا؟ أكره التورط في أمر قد يجلب الوبال على رأسي لمجرد أن تصفني أنت بالشجاع!
- تريد رؤية الشجاعة؟ أين هي الكلمات؟
- أخبرتك أنني لا أحفظ سوى أول سطر..
- أفضل من لا شيء! اهمس به في أذني..
- سأفعل، وتحمل أنت مجمل العواقب!
وهمس في أذن (عبد الرحمن) ببضع كلمات، فوقف الأخير نافخا صدره كالديك قبل صياحه:
- «قشبوش.....» (قام بمط حرف الواو في الكلمة الأولى)
ومن ثم أطبق الصمت بفكه الثقيل على أرجاء الحجرة كالقدر الذي لا مفر منه..
فجأة..انقطع حبل الصمت لدى سقوط منضدة الكواء العريضة من تلقاء نفسها!
دبت - إثر ما حدث- عاصفة هوجاء من الرعب فيما بينهم، فتكالبوا على الباب بغية الفرار من الحجرة، في حين وثب (سالم) – من الشلة اليمنية- من النافذة المفتوحة كما لو كان يغوص للبحث عن اللؤلؤ!

****

وجد (رَمَّاح) الأضواء مسلطة عليه..
بداية زاره مشرف السكن كي ينهاه وينذره من استحضار الأرواح الشريرة

داخل السكن..

ثم أتى زميل له يطلب استعارة الكلمات للتيقن من صدق رواية الشباب عما حدث في تلك الليلة..

وجاء طلبة من عمان وزنجبار زعموا بأنهم سحرة - يا له من سيرك!-، فجلسوا لسماع الحكاية مجددا..

حضر كذلك شاب أسود ناري النظرات، ادعى أنه مشعوذ أثيوبي ينجح من دون مذاكرة! ويمتلك النسخة الأصلية من كتاب الغزال، وقد قدم للتيقن..

(أحمد الطويل) - وهو شاب اسمه على مسمى- تضرع وتوسل لرَمَّاح كي يعيره تلك الكلمات بغية الانتقام من عمته القاسية التي تحاول التفريق بين والديه!

وهكذا تردد اسمه كالنار في الهشيم لفترة بسيطة، مقرونا بقدرته في التعامل مع الشياطين المخربة والجان الكافرة!

ورغم مقته لها - أو أن ذلك ما كان يظنه-، استحسن (رَمَّاح) الشهرة وإن كانت من ذلك النوع العجيب!

الفصل الخامس

قال (رَمَّاح) بثقة وعن يقين:

- دكتور الجامعة لا يجب أن يكون عربيا!

سأله (بكري) باهتمام ظاهري:

- ماذا يجب أن يكون إذاً يا زول؟

- أوروبيا، فرنسي تحديدا!

- ماذا لو كان أمريكيا؟

- أعوذ بالله! كان عندنا (إيدي) الذي درسنا مساق اللغة الانجليزية لمدة أسبوع لا أكثر، كان يخاطب الطلبة بامتعاض، وكثيرا ما كان يردد وبكثرة: «أنتم يا أبناء العرب ما خلقتم إلا للتفاهات فقط!»

وذات مرة قال مخاطبا أحد الطلبة بسخرية: «أنت يا (سندباد)، بالتأكيد لن تعرف الإجابة!»

- كلامه دال على أنه عنصري سوقي رغم أنه دكتور..

- وفي مرة أخرى قام بالسخرية من أحد طلبة كلية الشريعة، كان الفتى يحمل مصحفا، فسأله (إيدي) عما يحمله..

وعندما أخبره بأنه مصحف قام بتقليد حركة تقبيله ومسه بالجبهة في تهكم صريح! فغضب الطالب وقام بلطم الرجل في ثورة غضب عمياء ، ففصلوه على إثرها مع الأسف..

- يا له من خسيس!
- ويا لهم من أخساء! أخيرا أتى اليوم الذي تخلص فيه الجميع من الدكتور الأمريكي، ففي ذلك اليوم فتح عميد كليتنا (موفق) باب القاعة لأمر طارئ، وإذ به يجد (إيدي) يغني وهو سكران تماما والطلبة يضحكون! كان يعاقر الشراب، لكنها أول - وآخر مرة- يُقدم بها على الذهاب إلى الجامعة وهو ثمل، كما لو كان يتحدى الجميع بهويته الأمريكية، ويوم رحيله هلل الطلبة وكأنهم انتصروا في موقعة!
- الحق معهم، والحق أنني أعتبر ذلك أيضا نصرا مؤزرا.. سِيدي.. ماذا عن الدكتور الفرنسي؟
- دكتور (بيير)؟ الله يذكره بالخير! في أول محاضرة له سألنا عن مرجع مهم مقرر علينا إحضاره، فارتفعت الأيادي بالمراجع المطلوبة عدا يدي، وعندما علم أعطاني مبلغا من المال لشرائه!
- أمر عجيب!
- شرحه سلس وفائق الإمتاع، ينفذ للعقل رغم كل العراقيل.. داهية كذلك، ففي مرة من المرات أمر طالبا يدعى (حسان) بالإجابة عن سؤال طرحه فلم يتمكن من الإجابة، وحين طلب منه (بيير) الجلوس شتمه (حسان) وهو يجلس بقوله: ابن ال..! وهنا سدد (بيير) بنظرة نارية صوب (حسان) رغم أنه لا يفقه حرفا بالعربية، وطلب منه أن يعتذر حالا!
سألته: دكتور، هل أنت مُلم بالعربية؟ فأجاب:
Elementary my dear boy!
- قد أعجبت به دون أن ألقاه يا زول!
- أجواء محاضراته مرحة، وقد طلب منا رفع الكلفة فيما بيننا، فصرنا نناديه باسمه مجردًا من الألقاب السخيفة!
أطلعنا على أمور مسلية، عن متحف «اللوفر» وبرج «إيفل» حيث يتبادل

العشاق القبلات على سطحه علانية! فكنا نبتسم بخبث ونحن نتظاهر بأن تلك الأمور معتادة عندنا كي يسترسل أكثر!

فجأة يتوقف عن الكلام، ويثب من مكانه صارخا في (حسان) بعربيته الركيكة: «(هسان)! لا تدس عليه!» فيتجمد الأخير وقدمه لا تزال معلقة في الهواء.. لمحنا صرصورا يعبر أسفل قدمه! وحين حاولنا سحقه كرر تحذيره.. أخبرنا أن علينا تعلم حب الحياة والطبيعة، وتقدير شتى صنوف مخلوقاتها الحية وأشكالها مهما بدت منفرة ومقززة، ضارة كانت أم نافعة!

- (بوذا) زمانه!

- أحيانا كان يتوقف عن الشرح ليحكي لنا عن واقعة حدثت له في بلده، أو عن فكرة ما جالت في خاطره..

أشاد بالإسلام كثيرا وبالمسلمين الذين يعيشون في فرنسا، مؤكدا لنا أن سمعتهم طيبة ولله الحمد، لكنه انتقد الشباب هنا، ففي فرنسا يراهم أمثلة يُحتذى بها في الصدق والأمانة وحسن المعاملة والتعامل، أما هنا..

- كما لو كانوا لا يمتون للإسلام بصلة! آآآي!

- ذكر أن شباب هذه الديار يتصرفون بطريقة مزعجة، يسخرون من كل شيء، حتى من بعضهم البعض، يسخرون حتى من تحية علم بلدهم، ومن الفتيات حتى وإن كن منقبات أو محجبات، ومن انتفاضة الأراضي الفلسطينية المحتلة التي يراها حقا مشروعا لابد منه ولا خيار سواه.. بل ويعتبرها كثيرون هنا مشكلة تسبب بها الشعب الفلسطيني لتصديع رؤوس العرب فقط!

حكى لنا عما حدث معه عندما زار مجمعا تجاريا في إحدى الدول الخليجية، كان هنالك شبان يسخرون منه أثناء جلوسه في أحد «الكافيهات»، غادروا أخيرا لحالهم فسقطت من أحدهم محفظته، فتناولها (بيير) ولحق بصاحبها كي يردها إليه، فراح الشاب يصده كما لو كان قادما ليبصق في

وجهه، وفي النهاية اختطف محفظته من يد الدكتور وهو لا يكف عن شتمه ونعته باللص، كل ذلك ورفاقه يتضاحكون!

- ألا يملكون شبانا يصنعون مثل ذلك في باريس أو.. أو مارسيليا؟

- لديهم طبعا، لكنهم لا يتصرفون بمثل تلك الطرق الاستفزازية التي امتاز بها شبابنا، ولن أنسى أبدا ما قاله لنا (بيير) ذات مرة:

«إن رؤية الأبيض والأسود في الغرب أمر مألوف ومعتاد، بل إن الأسود قد طغى على الأبيض بصورة مقيتة في بلاد الغرب بأسرها..

أما اللون الرمادي فهو منتشر عند العرب.. منتشر بصورة غير طبيعية أو مفهومة!»

الفصل السادس

كان يدعى (برنولو)، وهي كلمة تركية معناها «ذو الأنف الكبير»..
إذاً فهو طالب تركي يتكلم العربية بطلاقة، وأنفه دقيق جميل كباقي تقاسيم وجهه! كما أنه لبق ولا يحب إثارة المتاعب..
أما عن سبب زيارته في هذا الوقت المتأخر من الليل فمن دواعي الاجتهاد، لا اجتهاد من دون قهوة، ولا قهوة من دون بن!
- «في أي مرحلة أنت يا (برنولو)؟»
كان المرجع الطبي تحت إبطه المشعر ملوثا بالعرق، وبلا تحفظ حك ذلك الشعر الغزير مجيبا:
- سنة أولى طب..
- ممتاز، عظيم..
كانا يقفان أمام عين الغاز في المطبخ يثرثران، ريثما ينتهي غلي الماء المُعد للقهوة..
يقول (برنولو) وهو يتابع خيوط الدخان المتصاعدة ببطء وسريالية من جمرة سيجارة (رَمَّاح):
- التدخين مضر بصحتك، وأنا طالب في كلية الطب!
- إليك عني يا دكتور! سيجارة؟
- لا أدخن..
- كذاب!

- أقسم لك!

- لا بأس.. اسهر معي قليلا..

- لا أقدر، ناولني القدح بسرعة، فإن ليلة طويلة من الاستذكار بانتظاري..

هكذا يطفئ (رَمَّاح) العين بعد إضافة القهوة للماء المغلي..

وقبل رحيل (برنولو) إلى غرفته لا ينسى طلب استعارة شريط «كاسيت» لفيروز..

****

طلب (جمال) استعارة إناء للطهي..

- «في هذا الوقت المتأخر من الليل؟»

ضحك الفتى الضخم قائلا وهو يهرش لحيته الخفيفة:

- الجوع كافر! سأحتاج إلى بعض الملح والبهارات أيضا.. هل لك أن تطفئ سيجارتك هذه؟ صرعتنا!

- لا!

وفتح (رَمَّاح) أرفف مطبخه قائلا باستهجان:

- يبدو وأنك قليل الهم كي تفكر بإضفاء النكهة إلى طعامك بعد منتصف الليل!

- لابد من الاستمتاع ببعض متع الحياة الزائلة.. ألديك «كاتشب»؟

- أثمة فرصة لتتذكر طلباتك مرة واحدة يا مفجوع؟

وعندما غادر أخيرا، كان يحمل أكياسا تحوي بيضا وبصلا وبطاطس وعلب سردين و «مارتديلا».. كما لو كان خارجا من «السوبرماركت»!

****

كان يخبئ المحمول السري في درج «الكومودينو» بجوار سريره، لذا وجده (عادل) بسهولة تامة ..

طلب استعماله لحاجة ملحة، فلم يجد (رَمَّاح) مانعا «ما دامت الحكومة

هي التي تصرف»!

ضغط الفتى العملاق منكوش الشعر أزرار المحمول بلهفة وهو يردد بحرارة وعدًا بعدم الإطالة، ومبينا مدى جمال هذا الاختراع العظيم، فهو يمكنك من سماع أصوات الساحرات دون أن تضطر إلى مواجهتهن!

تمدد – بلا إذن- على سرير (رَمَّاح)، ثم طفق ينتظر الرد متلهفا..

وهنا خفت صوته لاشعوريا عندما قال بنبرة متهدجة:

- هذا أنا!

صار من العسير سماع صوته، ثم بدا وكأنه قد انتقل إلى عالم آخر وردي، فدنا منه (رَمَّاح) أكثر، دنا حتى تمكنت أذنه من التقاط بضع كلمات ذات مغزى..

- «افتقدتكِ أكثر.. لا أنا أكثر.. لا أنا!

لم تنامي بعد؟ تفكرين بي؟ (ثم بخيبة أمل) بـ«الكويز»؟ حتى أنا أفكر به.. كل ليلة.. أقصد قبل ميعاده!

تمازحينني؟! آه يا شيطانة! (يضحك) أريد سماعها مرة ثانية.. الله! مرة أخرى!»

همس (رَمَّاح) في أذنه بملل:

- ألا تظن هذا كافيا؟

- دقيقة واحدة.. كح! كح!

ورفع ثلاثة أصابع مضمومة بتضرع مقاوما مزيدا من السعال بسبب دخان سيجارة (رَمَّاح) الذي تسلل إلى رئتيه! ثم واصل حديثه وكأنه حصد الموافقة سلفا..

- «البحر؟ أزرق كعيون المها!

الأحمر؟ لوني المفضل بكل تأكيد! لون الورود!

أنتِ من مواليد برج الجوزاء؟ هذا رائع! حتى أنا!»

- «أريد أن أنام!»

- «نصف دقيقة.. كح كح! ماذا؟ لا ليس مرضا! لا، لا أدخن! ماذا؟ آها الأمر بسيط! نقسم لتر الحليب إلى قسمين متساويين، ثم نسحق قرص الرنين ونذوبه في قليل من الماء، بعدها نغلي القسم الأقل ونتركه.. لا! حتى تصبح درجة حرارته 40 يا حمقاء! ههه! بعدها نضيف له نصف كمية القرص ثم نخلطه بال..

- «قم من على سريري يا خرتيت!!»

تجهم وجه (عادل)، ووجم صوته وهو يقول:

- يستحسن أن أدعكِ تنامين الآن.. ماذا؟ لا، لكن الوقت تأخر وأنا لا أريد أن أكون مزعجا بأي حال من الأحوال!

لا أنا أكثر! لا أنا! قلت أنا! تصبحين على خير..

وقبل السماعة بشفتين مبلولتين، ثم نظر إلى (رَمّاح) قائلا له باغتياظ عارم:

- يا أخي ذللتنا! لم تتركنا ننعم بلحظة.. كح كح كح! وسيجارتك اللعينة ذبحتنا! رفقا بالرئتين!

- معك حق......اخرج عليك اللعنة!!

خرج الفتى متبرما، فأدرك (رَمّاح) أنه يشتمه الآن في سره..

المهم أنه قد رحل أخيرا حاملا إزعاجه معه!

****

اقتحم (فضل الباري) الغرفة صائحا بغلظة حارة:

- ما «هزه» الضوضاء؟!

كان أفغانيا حار الدماء سريع الاشتعال كموقد بنزين، ورغم ضآلة جسمه وسماكة نظاراته الطبية لم يكن يهاب أحدا، فقد شهر بكراهيته لرَمّاح علانية، لأنه كثيرا ما كان يرفع من صوت الموسيقا حتى لتكاد جدران الغرفة أن ترتج!

شعره قصير، فلو أطاله لبدا كالراحل (جون لينون) بالضبط في أواخر أيامه، وحدق بحدة طائر جارح إلى حيث يضطجع (رَمَّاح) وهو يدخن وينصت إلى موسيقا غربية صاخبة تكاد بان تثقب طبلة أذنه..

كان يكره هذا النوع من الموسيقا لكنه يستمتع بمشاكسة الأفغاني الغاضب على الدوام، للأسف لم يتخلص (رَمَّاح) بعد من مشاكساته الصبيانية.. لا يزال يتشاجر ويشاكس ويضايق، ولربما يعاكس أحيانا كأيام ماضيه الأسود!

و(فضل الباري) يصرخ:

- أنت يا صاحب «هزه» الضوضاء! هناك من «يزاكر» استعدادا «للامتهانات»!

أخفض الصوت وإلا كسرتُ «هزه» الآلة «الموسيكية» على رأسك!!

وخرج مسرعا وهو يعوي دون أن ينتظر نتائج غضبه العاصف، فقرر (رَمَّاح) تنفيذ أمره رحمة به من الفالج!

أطفأ المسجلة باسما بمكر وقد فضل عدم خوض مشاجرة مع الأفغاني المشتعل، فهو طيب القلب رغم سلبياته المتعددة..

****

ضحك (إلياس) كثيرا بعد سماعه حكاية (رَمَّاح) مع (فضل الباري)، وتساءل:

- لِمَ تضايق دوما ذاك المسكين؟

- عادة سيئة.. كالتدخين!

كانا يمارسان لعبة كرة السلة لوحدهما، الجو رطب، فالتصق قميصاهما ببدنيهما من غزارة العرق..

كان (إلياس) شابا ممتلئا أسود من غانا، قلبه ناصع البياض كقطعة من القمر.. وقد قال وأنامله تدور الكرة بمهارة:

- أصبت، التدخين عادة سيئة، فلِمَ لا تتوقف عن شفط سم هذه الحية؟

تبسم (رَمَّاح) بعبوس، وقال محاولا انتزاع الكرة من بين أصابع (إلياس) الزلقة:

- تلك الآفة صارت قدري..

- والله العليم ما إذا كنت ستظل واقفا معي لساعة أخرى.. لدقيقة أخرى.. لثانية أخرى!

وعندها سيبدو هذا التبرير حماقة من حماقاتك المتعددة!

- بإمكاني مراهنتك على الدقائق القادمة!

- الله يختبر العبد، وليس العبد يختبر الله!

توقف (رَمَّاح) عن اللعب متنهدا، ثم همس بمرارة:

- صدقت.. على العموم أفكر حقا بالكف عن التدخين..

- هذا خبر رائع!

وتوقف (إلياس) عن اللهو بالكرة واضعا يدا ثقيلة متعرقة على كتف (رَمَّاح) متسائلا برفق:

- ما الحكاية؟ تبدو مهموما..

أطلق (رَمَّاح) تنهيدة أعمق، ثم قال من دون النظر لصاحبه:

- كنتُ خامدا كالبركان، أعمل كسائق سيارة أجرة وأترهل عقلا وجسدا، وعندما أنام أحلم بالحماقات الرائعة التي نفذتها أيام الثانوية!

وعندما بدأت الدراسة هنا شعرت بيقظة غامضة، يدٌ عنيفة هزتني كي أسترجع ما اعتبرته أمجاد الماضي الزائلة!

ابتسم (إلياس) كاشفا عن أسنانه العاجية النضيدة، وبلهجة صدوقة غمغم:

- ليست حجة كافية، لا لما فعلته، ولا لما ستفعله!

- الله وحده أعلم بما سأفعله!

الفصل السابع

لم يُخفِ (رَمَّاح) إعجابه بترتيبات الحفل القائم على شرفهم - كما زعم مدير الجامعة-، إذ أن التحضيرات بدت مُعدة لوفد كبير المقام، جاء لعقد صفقات فيها مصلحة لبلدين غير متجاورين!

موائد دائرية ذات شراشف بيضاء مزركشة، وقد اصطفت فوقها شمعدانات فضية حملت شموعا حمراء مشتعلة، روائح عطرية تداعب الأنوف بلطف النسائم، فرقة أقرب للجوقات تعزف سيمفونية ما..

ترى كم تكلف هذا كله؟

الطالبات يرفلن في فساتين زاهية، والطلبة في البدل المسماة «توكسيدو»، لم يتلق (رَمَّاح) تلك الفراشة المسماة «بابيون» لحسن الحظ، فعمد إلى ارتداء بدلته من دون ربطة عنق ما..

من بعيد يقف دكاترة الجامعة ببدلاتهم الغالية ونظراتهم المتعالية، العميد (موفق توفيق) عميد كليته يحادثهم ويناكتهم ويقهقه على نكته الظريفة وحده!

الرجل في الخمسين من عمره، مُطلق كما يشاع عنه في الوسط الطلابي، له صلعة ضخمة تلمع كالمرآة، وشارب يصلح لجزار، يرتدي نظارات طبية مظللة ذات إطار مذهب، من الطراز الذي يرتديه تجار المخدرات في الأفلام الصينية..

بدلته ذات لون خمري داكن، منحته مظهرا لا يطاق، وكأنه مهرج يحاول التظاهر بالجدية، لم يتوقف ولو للحظة عن إهانة نفسه بالتحدث لأولئك المتغطرسين الذين لا يتوقفون عن احتساء العصير ورمق الرائح والغادي بازدراء، يعاملونه معاملة العبد، ويبدو وأنه راض عن ذلك!

ولكن ما إن يمر مدير الجامعة مرور الكرام حتى تتغير الآية، فيحاولون محادثته بتضاحك، لكنه يستقبل ذلك كله بوقار مع مسحة تأفف لا باس بها!

- «سخفاء.. أليس كذلك؟»

تبسم (رَمَّاح) مؤمنا:

- بلى!

ونظر إلى محدثه، فانتصب الشعر في جلد ساعده وهو يهتف بصوت مرتبك:

- دكتور(بيير)!

كان الدكتور الفرنسي واقفا بقميصه الأسود وصلعته الخفيفة المحمرة وبمرحه المعهود، ووضع يده - دون تكلف- على كتف طالبه قائلا بنبرة ضاحكة:

- هذا ديدن الدكاترة! ينسون أن الهدف من حفل الترحيب بالطلبة هو رفع الكلفة ما بين العالمين!

ابتسم (رَمَّاح) قائلا بقلق:

- هذا رأيي أيضا..

سدد (بيير) بنظرة قاسية إلى (رَمَّاح)، وبتؤدة تساءل:

- ماذا قلت؟

تلعثم (رَمَّاح) وهو يرد مسرعا:

- أعني أن الصواب هو ما تقوله.. دائما.. على الأرجح!

انفجر (بيير) ضاحكا، وضرب كتف (رَمَّاح) عدة مرات صائحا بالانجليزية:

- You too easy! I can›t believe it!

اغتصب (رَمَّاح) ضحكة وهو يمسح بعض العرق الذي تصبب على جبينه،

عليه ألا يضغط على أعصابه مرة أخرى بهذا الشكل وإلا انفجر..
ناوله (بيير) كأس عصير من المائدة التي تراصت فوقها عشرات الكؤوس، وبودٍ هتف وهو يلكمه في ساعده:
- حاول الاستمتاع يا فتى، انظر حولك وانخرط مع من ستزاملهم لأربعة أعوام!
وتجرع من كأسه قبل أن يردف في خبث:
- هذا إذا لم تصر ستة بكسلك!
- لا أظن، فأنا لا أنوي البقاء طويلا..
- هذا فتى جيد! والآن دعني أعرفك على إحداهن..
ضحك (رَمَّاح) وهو يهرش مؤخرة عنقه قائلا بحرج:
- رويدك عليّ يا دكتور، فهذا ليس ناد للتعارف!
- بل هو كذلك أيها السخيف.. (صوفي)!
ظهرت من الحشود المثرثرة والضاحكة فتاة..
الواقع أن (رَمَّاح) لم يحظ بتجربة عشق حقيقية من قبل، لم يعايش حكاية غرامية حقيقية مع فتاة من قبل.. لكنه وفي تلك اللحظة تمنى أمنية من أعماق قلبه.. تمنى أن تكون حكايته الأولى -والأخيرة- مع (صوفي)!

دنت الفتاة الرائعة بخطوات رشيقة، فستانها خمري له زهرة مزركشة أنيقة على الكتف الأيمن، شعرها كستنائي ناعم وكأنها استخدمت مكواة في تصفيفه، وقد أنزلت خصلات مسرحة شبه غلامية على جبهتها ناصعة البياض، فبدا تكوينه مع تصفيفة شعرها علامة ذوق جمالية لا شك فيها! من أذنيها تدلى قرطان من اللؤلؤ، وعلى شفتيها طلاء شفاه «روج» وردي لامع، أنفها دقيق بديع، وفي عينيها الخضراوين التماعة طفولية بريئة إلى حدٍ لا يصدق..

- «أقدم لك (صوفي)! طالبة في كليتنا، البارحة فقط وصلت من موطننا المشترك.. (صوفي)، أقدم لك طالبي المفضل (رَمَّاح)!»

مدَّت ذراعا بيضاء منتهية بيدٍ ذات أنامل دقيقة طلبا للمصافحة، وهي تقول ببشاشة رائعة:

- سررتُ بمعرفتك!

أسرع يصافحها وهو يبذل مجهودا خرافيا في الحفاظ على مستوى لونه الطبيعي، آخر ما يود أن تراه هذه الحسناء هي حمرة فاضحة في سحنته.. والدكتور (بيير) يضحك قائلا:

- ألم تلاحظ شيئا؟

- مثل ماذا؟

- مثل ماذا؟! يا لك من طالب نجيب!

خيل لرمَّاح فجأة أنه قد فهم مقصد دكتوره، فرفع سبابة متأرجحة قائلا:

- أنتِ تتقنين العربية وبطلاقة مذهلة!

تبادلت نظرة ضاحكة مع (بيير) قبل أن تومئ برأسها قائلة بمودة:

- والدي عربي ووالدتي فرنسية..

«خليط ممتاز!» كذا تفكر (رَمَّاح) في.. لقد تلاشت أفكاره القديمة، صارت كلها عبارة عن صور لصوفي وهي تحملق، وتبتسم، وتضحك، وتصغي بانتباه.. يا ألله! لِمَ خلق الله الفتيات على هذا القدر من الجمال؟!

- «ألم تجوعا بعد؟»

تساءل (بيير) مقطب الجبين.. «البوفيه» مترامي الأطراف بانتظارهم، لكن (صوفي) الحسناء بدت مترددة..

- «لا أعلم ما آكل، الأصناف هنا تبدو طيبة لكن..»

تطوع (رَمَّاح) لانتقاء وجبة على ذوقه، من يدري؟ لربما تصير بادرته تلك محط إعجاب لدى الفتاة التي سرعان ما تحولت إلى فتاة أحلامه!

سارع بخطف طبق لدى موافقتها، وصال ببصره وجال بدقة وحذر بين أصناف الطعام المُعَدة، اصطدم أثناء بحثه بكتف آمله بعض الشيء، لكنه كان المخطئ وعليه..

- «أنا آسف!»

لم يكن الشاب الآخر متحليا بذات اللباقة، إذ همس بوقاحة:

- هل أنت أعمى أيها الغبي؟!

وضع (رَمَّاح) الطبق من يده مُسددًا أقوى نظراته وأكثرها عنادا وتعنتا وهو يرد بخشونة:

- ماذا قلت؟!

كان طالبا ذا شعر منكوش كالغيلان، وقف وبيده عبوة مشروب «ريد بول».. يا لهاتين العينين! بدتا مريبتين ماكرتين إلى حد لا يصدق، ثمة أناس ترتاح لهم على الفور وأناس تنفر منهم على الفور.. هذا الطالب كان منفرًا من عينيه فقط!

لكن هذا لم يفت من عضد (رَمَّاح)، أحيانا يحاول أمثال هذا الشاب الاستئثار بسلطة الحرم الجامعي، تماما كعنترة السجن الذي يفرض قوته على الجميع، لا يجب أن يمنحه مثل هذه الفرصة، إن هذا محال..

سدد (رَمَّاح) بنظرة شرسة، تلك النظرة التي يرصد بها كل خلجة من خلجات خصمه في وقاحة منقطعة النظير، إنها نظرة لا تشعر المرء براحة..

- «الغبي هو.. أنت!»

والشاب استقبل تلك النظرات بسخرية، إنه من طراز يخيف ولا يخاف، قرأ (رَمَّاح) ميتة في بصره الضائق، لا عرق ولا خوف من أي نوع كان!

قال الشاب وقد رسخ في مكانه كالصنم:

- فائر الدماء إذاً! أم أنها تمثيلية طريفة؟

- ما قولك في أن أريك خارجا؟!

- «(رَمَّاح)! (داسم)!»
وظهر في الصورة عميد كليته (موفق توفيق)، فقال بصرامة كاسحة:
- لا نريد إثارة مشاكل هنا، اخجلا من نفسيكما فمدير الجامعة وسكرتيرته والأعمدة والدكاترة والطلبة كلهم هنا!
وانسحب بحنق مكتفيا بجبروته الكاسح – أو ما حسبه جبروتا-، فتبسم الشاب الماكر قائلا بسخرية جامحة:
- حسب التسلسل الوظيفي!
ثم وبنظرة ذات معنى:
- سنصفي حسابنا لا حقا يا.. هذا!
ابتسم (رَمَّاح) قائلا من بين أسنانه:
- وأنا بالانتظار.. يا ذاك!
عاود الشاب رمقه بتلك النظرات اللعينة، لكنه آثر الانسحاب بسلام..
شعر بمسَّة طفيفة بالكاد شعر بها على كتفه من الخلف، فالتفت بشيء من الغيظ ليرتطم بصره بعيني (صوفي) النجلاوين!
ردد بارتباك معاودا تحسس مؤخرة عنقه:
- أنا آسف أنا لم..
هدأت من روعه بابتسامة خلابة، ثم همست له:
- أنت أحمق! إن المشاجرة داخل الجامعة تكسبك الإنذارات ومن ثم الطرد! أنت لا تريد أن تطرد، أليس كذلك؟
- الوغد أثار حنقي ليس إلا، لكنه لن يدفعني إلى ارتكاب حماقة..
- هذا حسن، والآن، ماذا عن وجبتي؟
وابتسمت بمرح، فغسلت ابتسامتها حنقه في ثانية واحدة لا أكثر..

الفصل الثامن

تمشى (رَمَّاح) في حديقة الحرم الجامعي، مراقبا أعمدة الأنوار وجسور الرخام المصممة بذوق واحترافية، ومحاذرا كي لا يدوس رقعة الأعشاب الخضراء، أو يقترب من مرج الأزهار الواسع..

كانت الجامعة الملكية أقرب إلى مدينة جامعية متكاملة، كل كلية ولها مبناها الخاص، ووسط هذا كله مبنى الإدارة الذي يتوسط جميع الكليات..

من بعيد تلتمع تحت ضوء القمر قبة المكتبة العامة الخاصة بالجامعة، وهي مكتبة شاسعة يحب إمضاء كثير من الوقت بين جدرانها، يوجد كذلك ملاعب لكل أنواع الكرات ما عدا «البيسبول» و»الجولف» و»الرجبي»، كما يوجد حوض سباحة وصالة حيث يتمرن أكثر الطلبة على أدوات الحديد ورفع الأثقال، كي يرسموا أشكالا متناسقة على معداتهم وفي أذرعهم وسيقانهم..

كان يتمشى وأصابعه تضغط ببطء أزرار المحمول، ثم وضعه على أذنه مراقبا سريان الماء في البحيرة الاصطناعية التي تجري من تحت الجسر الرخامي..

- «ما الأخبار؟»

- «أجل، هذا أنا!»

- «ومن غيرك؟ ما الأخبار؟»

- «تمام! إذا ما كنت تسأل عن الدراسة!»

تلقى صمتا على الطرف الآخر من المحادثة، فأدرك أن (الإدريسي) غير مستعد لتقبل دعاباته بعد!

قال وهو يتلفت حوله:

- حفلة الترحيب كانت موفقة بالنسبة لأبناء المهمين، لا لحملة المنح الذين بدوا كأبناء جحا عندما زاروا المدينة!

- هذا معلوم، فهم أبناء رجال الأعمال والمسؤولين الكبار والوزراء، ولسوف يرثون مناصب ذويهم!

- أمر طريف!

- وهو ليس من شأننا! أخبرني عمن أثاروا قلقك..

- حسن، لدي شكوك متعلقة بطالبين لغاية الآن..

- استمر..

- الأول وغد لئيم يدعى (داسم)، يقلد مطربا أمريكيا في قصة شعره لا يحضرني اسمه..

- لِمَ شككت فيه؟ هل ضايقك؟

تنفس (رَمَّاح) بعمق قبل أن يجيب ببرودة:

- صحيح أنه ضايقني، لكني لن أسلمه لكم لقمة سائغة لمجرد سخطي عليه.. الفتى حظي بمراقبة خاصة مني لأن شكوكي أحيانا تصيب، فوجدته يقوم بزيارات ليلية مثيرة للاهتمام، تصور أنه يملك مفاتيح إدارة الجامعة وغرف دكاترتها؟ أثناء الحفل انسحب فتبعته، وجدته يدخل مبنى الإدارة مستغلا تدخين حراس الأمن، وقد استعمل المفاتيح لدخول مكاتب المدير والسكرتيرة وبعض الدكاترة لسبب ما أجهله!

لاح اهتمام جلي في نبرة صوت (الإدريسي) وهو يسأل:

- مثير للاهتمام.. ماذا عن الآخر؟

أبدى (رَمَّاح) ترددا وهو يقول:
- إنه شريكي في الغرفة.. سوداني يدعى (بكري)، وهو يخرج في جولات ليلية غامضة و..
قاطعه (الإدريسي):
- هذا ديدن الشباب المستهتر..
- لكنه يزعم أنه طالب في كلية الاقتصاد، ولدى سؤالي عنه تبين لي أنه غير موجود في سجلاتهم، وليس هذا فحسب..
- ماذا أيضا؟
- سألت مشرف السكن عنه، فأكد لي ألا وجود لمن يدعى (بكري) في سجلاته هو الآخر!
تضاعف الاهتمام في صوت (الإدريسي) لما قال:
- معلومات مهمة، والآن أنصت جيدا.. لحظة.. ما هذا الذي تلوكه طيلة الوقت بحق الله؟!
توقف (رَمَّاح) عن المضغ قائلا بارتباك:
- إنها.. علكة نيكوتين!
كاد يقسم – رغم أنه لا يراه- بأن (الإدريسي) قد ابتسم عندما سمعه يقول:
- تحاول الإقلاع عن التدخين يا غلام؟
- أحاول!
- هذا شيء طيب.. المهم.. أريدك أن تواصل مراقبتهما، وشيء آخر، هل بإمكانك تصويرهما؟
- بماذا؟ هل سترسل آلة تصوير؟
- لا يا بن جحا الذي زار المدينة! استخدم المحمول فهو مزود بكاميرا..
- آهه! وهو كذلك..

****

شعر (بكري) بالتماع الوميض مع سماع صوت الكاميرا المميز لدى التقاط الصور، فنظر بدهشة إلى حيث يجلس (رَمَّاح) على مكتبه، فبادر الأخير إلى القول بابتسامة مرحة:

- من أجل الذكرى!

- آه.. لا بأس!

ولم يُزل تعبير عدم الارتياح عن وجهه وهو يبادر إلى ارتداء ثيابه، فقال (رَمَّاح) وهو يقلب قاموسا عملاقا:

- يجب أن تهتم بدراستك، فأنت لا تدرس بتاتا!

- لا عليك يا زول، الدكاترة جميعهم في جيبي!

- كيف؟

- هذا سري الصغير!

- وأين كتبك بحق الله؟

- أدرس في المكتبة، هذا أسهل وأوفر.. آآآي!

وتوقف عن تزرير قميصه، ثم نظر بخواء إلى (رَمَّاح) قبيل تساؤله:

- وما قصة كل هذه الأسئلة؟

- فضول لا أكثر..

استمر بمراقبته لعدة ثوان، ثم انسحب بصمت خارج الغرفة..

أسرع (رَمَّاح) بضغط أزرار المحمول، وقبل ضغط الزر الأخير «إرسال» توقف.. لماذا يُعجِّل بتحويل شريك غرفته الظريف إلى مشتبه به؟ ثم من هو كي يقرر المشتبه بهم من غير المشتبه بهم؟!

الواقع أن فكرة الواشي القذر قد بدأت تسيطر على كيانه بشكل محموم، لم يكن (رَمَّاح المُسامِح) من الوشاة يوما، في المدرسة يدخل الوكيل بخيزرانته الملفوفة بشريط أسود لاصق.. يهدد الطلبة بـ»زبيدة»! إذ أن كل مدرس يسمي عصاه باسم امرأة، مدرس اللغة العربية يسمي خيزرانته ذات

الشريط اللاصق الأحمر «موزة»، ومدرس الرياضيات الذي يلف عصاه باللونين الأخضر والأصفر «حصة»!

المهم أن الوكيل أراد معرفة «السافل» الذي دوَّن أسماء المدرسين مقرونة بأسماء حيوانات على أبواب الحمامات، لا أحد يعترف رغم معرفتهم بالحقيقة، فتتلقى المدرسة بأسرها عشرات الضربات اللاهبة على الأيادي، لكن لا أحد يقر بالمعلومات الثمينة، لا أحد يرغب أن يصير واشيا لأنها أشياء تطارد سمعة الطالب حتى عقب انتهاء الدراسة، ومن ثم تبدأ المتاعب الحقيقية في الإجازة الصيفية، حيث يُطارد طيلة الوقت بنية الضرب والانتقام!

ألصق (رَمَّاح) المحمول بخده في هم، وطفق يفكر بروية وتأن.. لا، لن يستعجل الأمور، عليه أن يتيقن أولا..

الفصل التاسع

يوم جديد من أيام الدراسة المملة..

الدكتور (أنسي) يسير وكأنه يتريض - كعادته- في طريقه إلى قاعة المحاضرات، داخل مبنى الحرم الجامعي المقدس..

كالعادة يتحاشى إلقاء تحية الصباح على الطلبة الذين يلقاهم، لأن ذلك لا يليق بمكانته كمحاضر وعميد أيضا، وعندما دنا من باب القاعة الكبير شعر بأحدهم يسير وراءه بخطا حذرة، فتوقف في مكانه، ولوى عنقه كي ينظر للخلف، فوقع بصره على..

- «صباح الخير يا دكتور (أنسي)!»

لم يرد الرجل التحية بالطبع، بل حدَّج صاحبها بنظرات طويلة ملؤها الامتعاض المعتاد، ثم قال:

- (رَمَّاح المُسامِح)!

- هذا اسمي!

- خلفي كالعادة!

- الواقع أن..

- وأين كنت أيام المحاضرات الماضية؟

- هذا ما أريد أن أناقشه معك، بشأن..

- أخشى ألا وجود لما يستدعي المناقشة بيننا يا فتى!

ودلف مكفهر الوجه ممتزج الحاجبين، فأدرك (رَمَّاح) أنه لن يحضر اليوم أيضا!

****

تساءل العميد (موفق توفيق) مقلبا الأوراق المتراكمة بإهمال على مكتبه:

- ماذا تريدني أن أفعل؟ إهمالك هو الذي أعطاك الإنذار الأول!

تنمر (رَمَّاح) قائلا:

- أنت عميد كليتي، والعالم بمشاكلي مع وقت المادة ومواعيد الدكتور (أنسي)، ثمة تعارض بسيط، فحين أفرغ من مادة دكتور (بيير) Literature English في المبنى A أهرع كالمجنون كي أحاول مسابقة الرجل قبل دخوله القاعة في المبنى D ، ثم أجده كعادته يتقدمني.. قل لي ما العمل بحق الله؟!

- هذه ليست مشكلتي، تحدث إلى دكتورك..

- لكنه لا يتوقف للإصغاء حتى!

- هذه ليست مشكلتي، عليك إعادة ترتيب أولوياتك وإيجاد حل مناسب!

- حتى رجل الوميض Flash The لا يستطيع الوصول في الوقت المناسب!

احتدت نبرة صوت العميد قليلا وهو يقول:

- لا تتظارف معي يا فتى! لستُ صديقك الحميم كي تناقش أبطال القصص المصورة معي!

إذاً فهو يعلم من يكون رجل الوميض.. يا للطرافة!

- «ما أردتُ قوله هو..»

- «فهمت بالضبط ما تريد قوله، والآن..»

ونهض معلنا انتهاء المقابلة، فأرجح (رَمَّاح) برأسه واجما، ثم نهض متثاقلا ليخرج من المكتب بشيء من الخنوع المغتاظ..

فما إن صار خارجا حتى رفس الباب بغل على مرأى من السكرتيرة الحسناء

التي شهقت مرتاعة، في حين ارتفع صوت (موفق) من الداخل صائحا:
- ألا زلت هنا؟!
انسحب مسرعا وهو يسب ويلعن العميد.. كان الحل موجودا، ألا وهو الطلب من (بيير) السماح له بمغادرة محاضرته قبل انتهائه بعشر دقائق كاملة، المشكلة أن المطلب بدا وقحا.. هو يعلم أن الفرنسي الظريف لن يراها مشكلة وسيوافق، لكنه شعر بالإحراج الشديد، لا.. لن يطلب منه أمرًا مماثلا، وليذهب (أنسي) - مع (موفق)- للجحيم!

****

اليوم تقدم كافيتريا الجامعة قطع الدجاج مع البطاطس المقلية، وجبته المفضلة.. أخيرا شيء سار في هذا اليوم الكئيب، سيملأ الطبق بأفخاذ الدجاج وكومة من البطاطس المقلية، وسيطلب مشروبا غازيا منعشا من الحجم الكبير.. ثم سيجلس في وحدته المعتادة في ركن الكافيتريا البعيد عن ضوء الشمس، كي يلتهم غدائه كمصاصي الدماء النهمين!
معلوم أن طلبة السكن نادرا ما يلتهمون الطعام في الكافتيريا، وخصوصا طلبة المنح، إذ أن الطعام هنا باهظ الثمن، فاتفقوا فيما بينهم على التعاقد مع أحد المطاعم كي يوصل الطلبيات حتى أبواب غرفهم..
أما الطلبة الذين يأتون من قصورهم وفللهم فيأكلون ويأكلون ويدفعون ويأكلون! سياسة عجيبة بعض الشيء أن يكون طعام الجامعة بمقابل مادي، لكنها متبعة وفق اللوائح والأنظمة، وحتى الدكاترة يتناولون وجباتهم مدفوعة من جيوبهم أيضا..
يبدو وأن أرباح كافيتريا الجامعة كالذهب! مشروع ناجح للغاية!
- «أتسمح لي بالجلوس؟»
أحيانا يتمنى إحداث حالة شغب في قاعة الطعام كتلك التي يحدثونها

في السجون، لكنهم هناك يُحدثونها عندما يجدون حشرات في اليخنة، أو مسامير في الخبز، لكن الطعام – للأسف- نظيف هنا!

- «أتسمح لي بالجلوس؟»

إن..

رفع وجها خاويا متبلدا، لكنه سرعان ما نبض بالحياة عندما وقعت عيناه على أجمل صورة يمكن لفنان إبداعها، بالأحرى لم يُخلق بعد الفنان الذي يحاكي إبداع الخالق عز وجل!

كانت (صوفي) واقفة بتنورة بيضاء لم ير أكثر منها أناقة في حياته، تفوح منها رائحة عطر مدوخة، وقد ربطت شعرها ببكلة على شكل فراشة فضية!

هبَّ واقفا وأصابعه تثب – لا شعوريا- نحو مؤخرة عنقه ككل مرة يراها بها، وتمنى ألا يحمر وجهه..

سحبت الكرسي المقابل وهي تجلس قائلة بمرحها المعهود:

- تبدو مرتبكا!

جلس ببطء وقد ندم أشد الندم لتأخره في سحب الكرسي لها، وبنبرة لامبالية مصطنعة دمدم:

- إنها المفاجأة فحسب!

عضَّ نواجذه بغتة كأنما ندم على قوله، فاتسعت بسمتها قائلة:

- أين المفاجأة بالضبط؟ أنا لم أباغتك أو أضع قدمي في طريقك كي أعرقلك!

أطلق ضحكة قصيرة لما تخيلها تصنع ذلك معه، ثم لم يلبث أن عاودته طبيعته عندما قال:

- لم أتوقع.. أن نتقابل ثانية!

- وكيف راودك مثل هذا التفكير العجيب؟ ألسنا زملاء تخصص واحد؟ لابد وأن نلتقي دائما!

- هذا يذكرني أنك لم تحضري اليوم محاضرة دكتور (بيير)..

أراحت ظهرها على مسند المقعد قائلة بهدوء:
- لم أكن جاهزة بعد، لكنك ستراني المحاضرة القادمة بكل تأكيد..
«أتمنى رؤيتك في كل المحاضرات!» كذا تفكر ممتعا ناظريه برونقها وعذوبتها و.. ألا تبا! لماذا يفسد الدبور صورة الفراشة؟
كان يقصد ذاك المدعو (داسم)! فقد كان يجلس مقابلهما على بعد مسافة قصيرة، وتعبير السخرية متبدٍ في ملامحه اللئيمة!
قال (رَمَّاح) محاولا ألا يُظهر تضايقه:
- كيف وجدتِ الجامعة الملكية؟
- جميلة جدا! طلابها أذكياء ودكاترتها أجلاء..
- كلهم؟!
أراحت خدها الأسيل على راحة يدها البضة، هامسة بفضول بديع:
- آهه! يبدو وأن مسيو (رَمَّاح) يمتلك بعض الملاحظات الهامة عن جامعته!
- ليس تماما..
(داسم) يشعل سيجارة، فيهرع عامل الكافيتريا إليه كي يزجره، يظل واقفا فترة لا بأس بها أمامه والشاب ينفث الدخان ببرودة ودون مبالاة..
و(صوفي) تقول باسمة:
- أتفق معك أن بعض الطلبة والدكاترة متكبرون مغرورون، لكن هذا لا يمنع أن..
العامل يرحل مرتبكا، بالأحرى تبدى خوف شديد عليه! في حين واصل (داسم) تدخين سيجارته باستمتاع متجاهلا نظرات الطلبة المحدقة به في استنكار..
ثم يعود العامل، فيضع علبة مشروب «ريد بول» أمام (داسم) وينسحب!
هل الفتى ابن وزير الداخلية؟ ليس على علم (رَمَّاح)!
كل هذا و(صوفي) لا تزال تتكلم، ألا تبا! ما الشيء الأهم من سماع هذه الحورية وهي تغرد؟!

التقط طرف خيط كافٍ من كلامها، فتابعه بقوله:
- الدكاترة لا يُقدرون، والعميد غير مبال، الطلبة يروحون ويجيئون بهواتفهم النقالة ونفاقهم الذي لا يفرغ، سياراتهم خارجا في مواقف بمظلات تقيها حر الشمس، حقيقة لا أعلم ما يصنعون بشهاداتهم وهم يمتلكون كل شيء!
- يجب أن يُحصلوا على شهاداتهم، ليس لمجرد أن..
- البارحة سمعت أحدهم يتحدث باستهتار عن مدى تفاهة الشهادة الجامعية التي سيُحصل عليها، لماذا يدرس إذاً؟ ماذا يصنع هنا؟
- ربما أهله أرغموه على..
- أرغموه؟! عندما يمتلك الفتى سيارة «بورش» يصعب عليّ تصوره يقوم بفعل ما يُرغم عليه.. هؤلاء ولدوا لتسمع كلمتهم، سواء من ذويهم أم من الخدم!
أنا آكل وحدي في هذه الكافيتريا وشعوري شعور المراقب طيلة الوقت، نظراتهم تراقبني أولئك الطلبة، يتساءلون بامتعاض عن كيفية وجود طالب بينهم بمثل هذا المظهر وهذه الثياب! يستنكرون أن آكل هنا برفقة حسناء مثلك، ألم تلاحظي نظراتهم النهمة تجاهك والحاسدة اتجاهي؟
صمتت (صوفي) كما لو كانت قد فضلت الإصغاء فحسب، فاسترسل واجما:
- دعيني أؤكد لك شيئا واحدا، لستُ غنيا، أنا أفقر الفقراء هنا!
الأجدر بي أن أطبق فمي وألا أتحدث عن هذا الموضوع، لكنني..
خيل إليه أنها نطقت عبارتها الآتية بأكبر قدر من الحنان:
- كان يجب أن تسري لأحد!
صمت (رَمَّاح) لأنه يعلم أنها محقة، كان يشعر بضغط لا حدود له، فهو لا ينتمي لهذا المكان، ويمارس وظيفة لا يستسيغها، والمضحك أنه يواظب على المحاضرات كما لو كان واثقا من أن (الإدريسي) سينفق عليه إلى حين تخرجه..

كان قد فكر بهذه النقطة كثيرا، ووجد أن الأفضل حضوره كافة المحاضرات للانتهاء من غالبية المواد، ثمة معادلة مواد في الجامعات الأخرى، وعندما يحين موعد الاستغناء عن خدماته سيرحل بالمواد التي حصَّلها من الجامعة الملكية، وبالتأكيد سيتمكن من معادلتها في أي جامعة أخرى رخيصة، وعندئذ يُحصل شهادته، ويكف عن مهنة سائق سيارة الأجرة التي لا تفيده في شيء..

كانت (صوفي) لا تزال تبتسم بحنان عذب، لكنه أشاح بوجهه عنها مُستشعرا مرارة، هما من عالمين مختلفين، وعندما يرحل سيفقدها هي الأخرى دون أدنى شك..

لذا.. فليكفَّ عن الأحلام!

الفصل العاشر

ذاتُ الحديقة ذات البلاط الرخامي الشبيه برقعة شطرنج مصقولة بعناية، التي تطل على بحيرة الجامعة الاصطناعية ذات النوافير، حيث يتمشى (رَمَّاح) للشعور بالسكينة، ولكي يتمكن من محادثة رئيسه دون مراقبة من أحد، فالخصوصية مهمة!

ضغط الأزرار بأصابع متعجلة، ثم وضع المحمول على أذنه منتظرا..

- «ما الأخبار؟»

تنهد بهم قبل أن يتساءل مهموما:

- تلقيتَ الصور؟

- صور المدعو (داسم) فحسب.. ماذا عن الآخر؟ السوداني؟

أجاب كاذبا:

- لم أنجح بالتقاط صورة له، لكنني الليلة سأفعل..

برهة صمت على الطرف الآخر من المحادثة، ثم ودون مبرر:

- أسمعك تزفر بأكثر مما تمضغ! هل أقلعت عن علكة النيكوتين؟

- أجل، حاولت وفشلت..

- لأنك أحمق!

تمتم (رَمَّاح) في سخرية:

- وما همك أنت؟

- تبدو محبطا يا غلام..
- أنت تعلم لماذا.. يا بيك!
برهة صمت أخرى، فحسب أن (الإدريسي) يفكر في تشجيعه أو حتى مواساته..
- «إذا أردتَ الانسحاب..»
ونِعم المواساة! فأسرع يقول باحتداد:
- أنا لم أقل هذا!
- ممتاز، تعجبني حماستك، استمر بالمراقبة، إياك واستبعاد أحد عن دائرة الشبهة، وإلا انتهى بك المطاف أشلاء متناثرة إثر قنبلة أخرى!
- لا عليك..
أنهى المكالمة ماصّا عقب السيجارة بجشع، ثم ألقى بالعقب في مياه البحيرة قائلا باستهجان:
- تبا لك أيضا!

****

يتسحب كالهر الحذر في الغرفة بعد أن أغلق الباب بحرص..
المكان غارق في العتمة، لكنه يتبين طريقه جيدا، يخلع ثيابه ويستبدلها بثياب مريحة من الصوان، كل هذا في العتمة الدامسة..
إنه الفجر بلا شروق، ساعة على الأكثر قبل أن تبدأ خيوط الشمس بالتسلل لتضيء أرجاء الغرفة وباقي الغرف..
ثم يشتعل الضوء فجأة، فينتفض، يسقط سروال «الجينز» الذي خلعه من يده، يلتفت في شيء من الذعر، فيبصر شريك غرفته جالسا على طرف الفراش، منتظرا إياه كزوجة نكدية مستعدة لشن حرب هوجاء عليه!
- «أهلا!»
قالها (رَمَّاح) كالمنتصر، فهتف (بكري) بعصبية:

- بحق الله أخفتني يا زول!! ألم تنم حتى الآن؟!
- أنتظرك!
- أهي دعابة؟ لماذا تنتظرني؟
نهض (رَمَّاح) ببطء، وصوَّب نظرة حادة أربكت (بكري) كثيرا..
- «اسمعني يا (بكري)، لقد تبعتك الليلة وتيقنت من صدق حكايتك مع شلة لعب الطر نيب!»
- «تبعتني؟! أنت مخبول حتما!!»
تنهد (رَمَّاح) قبيل متابعته:
- نشاطاتك الليلية لا شأن لي بها، لكن حكاية تسجلك في كلية الاقتصاد لا أساس لها من الصحة، كما أن المشرف..
وصمت متمعنا في أثر كلماته على شريك غرفته، فجلس (بكري) وقد بدت عليه سمات المتضايق الكاره لكل شيء..
- «يجب أن أثق بشريكي في الغرفة..»
ابتسم (بكري) فجأة بسمة مستهينة وهو يخرج سيجارة من جيبه العلوي، لم يحتفظ يوما بعلبة سجائر، كان يخرج سجائره إما من جيبه العلوي أو من وراء أذنه..
دفن واحدة بين شفتيه، فأشعلها (رَمَّاح) له بقداحته..
وبعد الشهيق والزفير الدخاني، نطق (بكري) ليقول:
- لستُ طالبا في كلية الاقتصاد! بحق الله أنا لستُ منتسبا إلى هذه الجامعة اللعينة يا زول!
- هذا ما استنتجته..
- أنا أعيش هنا بحق الله!
- أستميحك عذرا؟!
هزَّ (بكري) رأسا منكسة مردفا:

- أجل! أنا مختبئ هنا لأن فرص إيجادي ضئيلة للغاية، الواقع أنها ليست أول جامعة أقضي بها وقتي، في الجامعات الأخرى كانت حقيقتي تنكشف بسبب الطلبة الذين اسكن معهم، يشتكون مني لأسباب واهية أو لأخرى حقيرة أمام المشرف، وعندما يعلن عدم سماعه بي يتأكدون من أنني مجرد متطفل!

- ما الأسباب التي تقصدها؟

- خذ عندك مثلا هذا السبب، مدخن في غرفة من كارهي التدخين!

- هذا سبب حقير؟

- بل سبب واه، السبب الحقير هو رفضي الاشتراك في جمعيات! أقول لهم يا جماعة أنا مفلس! فيسألون ساخرين عن الكتب، فأتحجج بأنني أدرس في المكتبة، وعندئذ تبدأ مرحلة الشك..

- يجب أن تكف عن هذه الحجة إذاً!

- بيني وبينك كانت حجة مقنعة لدى التحاقي بأول جامعة!

تمدد (رَمَّاح) على سريره قائلا ببسمة متهكمة:

- هكذا إذاً؟

جلس (بكري) قبالته قائلا بوجل:

- لن تكون آخر مرة، لكن الجامعة الملكية كانت الأفضل والأنسب، لا مضايقات من المدخنين، ولا مبالغ مدفوعة في جمعيات، كانت فرصة لكي..

قاطعه (رَمَّاح) بتؤدة:

- وهل تعيش على قمار لعب الورق أم ماذا؟ من أين تُحصِل مصروفك؟

- أعمل..

- حقا؟ وما عملك؟

- أعمل كسائق سيارة أجرة!

أطلق (رَمَّاح) ضحكة قصيرة، فدمدم (بكري) بإحباط:

- أرجو ألا تخبر المشرف يا زول، دعني أنم اليوم وغدا أرحل بصمت!

- يا لك من أحمق يا (بكري)!

ونهض ليربت على كتفه هامسا بصدق:

- بإمكانك البقاء!

خيل لبكري أن (رَمَّاح) يسخر منه، فسأله بريبة:

- أتنوي تسليمي للشرطة؟ أم أنك جاد فيما قلت؟!

- آآآي!

وعاود (رَمَّاح) الرقود على سريره، معطيا ظهره لشريكه في الغرفة قائلا بصوت مسموع:

- يا لك من أحمق يا صديقي!

ثم بهمس:

- حتى أنا لا أنتمي إلى هذا المكان!



الفصل الحادي عشر

تساءل الدكتور (بيير) بمكر أريب:

- من منكم قرأ رواية«The Little Friend» (الصديق الصغير)؟

صمت ثقيل خيم أرجاء القاعة، وكاد أن يستمر لولا ارتفاع صوت أنثوي مغرد كالبلابل:

- أنا قرأتها!

- بالتأكيد فعلتي يا عزيزتي (صوفي)! أنا أسأل العباقرة الآخرين!

(حسان) المشاغب عاكف على تمرير ملاحظات عن مدى جمال الطالبة الجديدة لزميله، و(نهلة) ساهمة ويدها الممسكة بالقلم الوردي على شكل زهرة تخط قلوبا بأجنحة أعلى دفتر محاضراتها، أما (رَمَّاح) فقد اكتفى بمراقبة المنظر الخارجي عبر النافذة في شرود..

- Come on Guys! (قالها بأمريكية نيويوركية متقنة)، إن كاتبتها لأعجوبة رغم أنها في الثامنة والثلاثين من عمرها.. ماذا عنك يا (رَمَّاح)؟

وهنا نطق (رَمَّاح) بغتة متظاهرا بحسن الإنصات:

- أنا لم أقرأ الرواية إذا ما شئت الصدق!

تضاحك الطلبة، لكنه تابع بثقة ماكرة:

- لكني سمعت عن كاتبتها!

أسرع الدكتور (بيير) يشير إليه قائلا بانتصار:

- آهه! أفضل من لا شيء! ماذا سمعت؟
تنحنح قبل أن يقول ببصر شارد:
- أنها من الميسيسبي، تكتب بتروٍّ حتى أنها بحاجة لسنوات كي تفرغ من رواية واحدة.. حتى الآن لم تكتب سوى روايتين، والسبب أنها قررت أن نتاجها العام والأزلي سيقتصر على خمسة روايات لا أكثر!
- برافووو! هذا عظيم يا فتى! هل أكون لجوجا لو طلبت منك ذكر اسم تلك الكاتبة العظيمة؟
- أظن أن اسمها (دونا تارت) «Donna Tartt»!
- ممتاز! أنت رائع يا فتى!
وبحماسة استلم الدفة من (رَمَّاح) قائلا بانفعال مضحك:
- إن (دونا تارت) كاتبة مثيرة للاهتمام حقا، رغم صغر سنها نسبيا إلا إنها أضافت الكثير للأدب الأمريكي، والعجيب أن اسمها متداول في الأوساط الأدبية بشح، وروايتها «الصديق الصغير» رواية – حسب تعبير تارت- من روايات الرعب التي تدور في عالم طفولي له علاقة وثيقة بعالم الكبار القاسي..
وعاودته تلك البسمة الأريبة وهو يقول لطلبته:
- اخترت لكم رواية شبه مجهولة لم تحول إلى فيلم بعد لحسن الحظ!
تصاعدت الاحتجاجات الواهية، فرفع كفا حازمة مسترسلا:
- أريد أن يكتب كل واحد منكم ورقة «فولسكاب» واحدة فقط لا غير عن استنتاجاته بشأن ما أرادت (دونا تارت) قوله في روايتها «الصديق الصغير»، وأنتظر تلك الأوراق في محاضرة الغد بفارغ الصبر!
صاحت (نهلة) باستنكار مبين:
- غدا يا دكتور؟!
- غدا..
- لكن عدد صفحات روايتها حوالي 700 صفحة!

- أعلم هذا، أريد فقط نظرة أولية، استنتاج أولي، حتى ولو كان من المقدمة فحسب.. وتذكروا أن هذا Presentation ! سيجبركم ذلك على الوقوف والمناقشة أمام بعضكم البعض!

ونظر إلى ساعته قبيل ابتسامة رزينة جديدة زينت وجهه، ثم قال مخاطبا إياهم:

- بإمكانكم الانصراف الآن..

نظر (رَمّاح) إلى ساعته، فوجدها تشير للتاسعة إلا ثلاث دقائق، لن ينجح ببلوغ محاضرة Research Methodology حتى ولو نبت له جناحان!

فليذهب (أنسي) بمحاضراته إلى الجحيم، سيذهب للخارج كي يدخن، وبعدها يرجع للكافتيريا كي يتناول قدح قهوة تركية مُرة..

لحقت به (صوفي) متسائلة بمرح:

- أنت سمعت بدونا تارت؟

ابتسم بدوره قائلا بشيء من إحراج:

- ألهذه الدرجة الأمر عجيب؟

- ليس بالضبط، لكني أراهنك على أن نصف الطلبة الذين يدرسون في الجامعة لم يسمعوا بها..

- وأنا أقول.. كلهم!

- أرأيت؟

- لكنني مفاجأة! أليس كذلك؟

خيل إليه أن نبرة صوتها قد صارت جذلة لما همست:

- مفاجأة كبرى!

راقبها مستمتعا قبل أن يسألها:

- ما قولك بشرب قدح قهوة معي؟

نظرت إلى ساعتها قبل أن تقول بأسف:

- عليّ الذهاب للمكتبة لكتابة بعض البحوث..

غمغم في خيبة أمل:
- لن أشغلكِ إذاً..
- أراك لاحقا..
وسارت بخطا متعجلة وهو يتأملها بإعجاب، إنها حورية وسط الحوريات، لكن مشكلة الحوريات الأخريات هي الثرثرة الزائدة على الهواتف النقالة، روبوتات ثرثارة لا تتوقف عن القيل والقال!
للأسف الطالبة الوحيدة التي رآها صامتة تقلب مراجعها كان فتاة وحيدة ذات نظارات طبية، كلما خرج وجدها جالسة على كرسي في حديقة الجامعة، تعقص شعرها ولا تهتم بزينتها، تدرس بجدٍ واجتهاد كي تصير عضوة في البرلمان على ما يبدو..
لربما اختلف الأمر لو درس في جامعة عادية، لكنه الآن في الجامعة الملكية حيث أولاد الطبقة المرفهة الذين انشغلوا بالبريستيج، في حين تجد – إلى جانب حملة المنح- نسبة 1% - كتلك الفتاة- قد أتى لينجز بأمانة المهمة التي أرسله ذووه لأجلها!

****

من بعيد يُطل (رَمّاح) بوجهه بحذر مراقبا هدفه بيقظة وتحفز..
لقد ظل طيلة اليوم يلاحقه ويتابعه، أحيانا يفقده وأحيانا أخرى يجده..
يظهر الهدف في الكافيتريا لشرب عبوة «ريد بول» الأزلية، ثم يظهر في المكتبة العامة ليكتشف (رَمّاح) أنه سارق الصور «الحميمية» من المراجع الطبية، وقد عاد المجرم لساحة الجريمة كي يواصل جرائمه دون خوف أو اكتراث لأحد!
نادراً ما يدخل محاضرة، ومن دون كتب أو أوراق، فإذا فعل كان لمدة قصيرة، وقد غادر مرة إحدى المحاضرات بعد مضي ربع ساعة منها، والعجيب أن دكتور المادة لم يعترض!

الأغرب من هذا كله أنه يحضر محاضرات لكليات مختلفة، تارة في كلية الإعلام، وتارة أخرى في كلية هندسة الاتصالات، فما تخصصه بالضبط؟!
هكذا قرر (رَمَّاح) مراقبته طيلة اليوم لأن كل ما يحيط به يريب بشدة، فلم يتنبه للوقت إلا متأخرا..
(داسم عواد) في غرف الدكاترة، يتنقل بين الغرفة والأخرى بحرية ودون خوف، مستخدما نسخا احتياطية من المفاتيح يعلم الله كيف حصل عليها، فالساعة الآن التاسعة والنصف ليلا، ومن النادر أن تجد دكتورا في مكتبه حتى هذا الوقت.. كلهم الآن في فللهم الملحقة بكليات الجامعة، يتناولون وجبات العشاء، أو يشاهدون التلفاز وهم يمارسون تمارين رياضية على الأدوات التي اشتروها، بعضهم يطعم حيوانه الأليف - وهم الأجانب ممن يربون قططا وكلابا-، والبعض الآخر مع زوجته وأطفاله الذين يقطنون معه!
و(رَمَّاح) يراقب، يراقب بحذر وفضول تحركات (داسم)، إنه يخرج من المكاتب حاملا أوراقا لا يعلم ما إذا كان قد نسخها أم استولى عليها، والمرجح أنه قد قام بنسخها لأنه سمع هدير مكائن النسخ في كل غرفة يدخلها، وبعدها يخرج وقد ازداد حجم الأوراق التي يحملها!
هل يسرق «كويزات» الدكاترة؟ ولكن بهذه البساطة؟
يجب عليه التأكد أولا..
فرغ (داسم) أخيرا من عمله، فرحل مسرعا دون أن يتلفت حوله كما لو كان موظفا هنا، فخرج (رَمَّاح) من وراء الجدار الذي احتمى خلفه، ودنا من الأبواب متفقدا إياها الواحدة تلو الأخرى، يجب أن يجد طريقة ما لفتح هذه الأقفال، لربما كان (الإدريسي) يملك الحل، فالموضوع مثير للريبة بحق..
بوغت بباب مفتوح، فسلط ضوء المحمول على عنوان الباب كي يعرف غرفة من هذه بالضبط، فتفاجأ أكثر عندما طالع الاسم..

- «(موفق توفيق)؟!»

دونا عن جميع الغرف اللعينة؟ لو رآه العميد لقضى على مستقبله حتما ودونما إبطاء! لكن العمل هو العمل..

دلف موجها الضوء نحو خزانة الملفات الزجاجية، ثم على سطح المكتب، ثمة زوائد لا داعي لها فوقه، دمى صينية وعلبة نكاشات أسنان، وقداحة عملاقة يحسبها الداخل زجاجة عطر!

عبوة مزخرفة حملت في داخلها عشرات الأقلام متنوعة الأشكال والأحجام، منفضة سجائر رخامية عريضة على شكل نصف بيضة نعامة أو رخ، إطار مذهب اصطفت عليه بطاقات أرقام هواتف العميد، فسحب (رَمَّاح) واحدة ودسَّها في جيبه تحسبا للأيام القادمة..

الأدراج مقفلة والمفاتيح غير موجودة، لن يجازف بكسرها طبعا، ربما لو بدأ عند الملفات سيجد ما..

ضوء كشاف قادم! حارس ليلي؟ هل بدأت مناوبته منذ الآن؟ وبعد رحيل (داسم)؟!

يا له من نحس!

أسرع يختبئ أسفل المكتب، لحسن الحظ ثمة شبكة ضائقة تسمح له برؤية ما يحدث، لم يسمح له الوقت بتفقدها من الجانب الآخر، فلو أضيئت الأنوار وجعلت الداخل يتمكن من رؤيته وهو مختبئ هكذا لوقع بالشرك!

كتم أنفاسه شاعرا بعرق جهنمي يحرق جبينه، لكنه استشعر شيئا من الطمأنينة، فالحارس الليلي يتفقد الأبواب فحسب قبل أن..

يتفقد الأبواب؟!

لو وجد الحارس باب هذه الغرفة مفتوحا فسيفتش المكان حتما، وهذا سيئ.. لكن الأسوأ هو أن يوصد الباب ب»الماستر كي» الذي بحوزته، وعندئذ يصير (رَمَّاح) حبيسا هنا حتى شروق الشمس!

الفصل الثاني عشر

الباب يُفتح والحارس الليلي يدخل..

لم يستطع (رَمَّاح) رؤية ملامحه لأنه سلط ضوء كشاف على أرجاء الحجرة مباشرة.. ثم سمعه يدمدم:

- عجبا! لا أذكر أنني تركت الباب مفتوحا!

إنه أحمق إذاً! يا لحسن الحظ! ولكن ماذا لو أوصد الباب بالمفتاح الآن؟

وهنا هبط الرجل بكشافه أرضا وكأنه لمح شيئا أثار انتباهه، فأدرك (رَمَّاح) أنه في ورطة أشد الآن..

ضوء الحارس يدور في دوائر، يمر برَمَّاح ويتجاوزه – لحسن الحظ-، ومن ثم يُمِيِّل الحارس رأسه محملقا باهتمام أشد! يتصرف كتحر أو كمحقق، يطيل في وضعيته تلك، ومن ثم..

-«على مر السنين عيناي دُربتا بشكل كافٍ لرؤية الأشياء من تلقاء نفسها.. سيدي!»

بحق الله قد كشف موقعه! لقد ضاع! هل يخرج؟ أم يهجم عليه مستغلا العتمة؟ أم..

ولكن لحظة واحدة.. لِمَ نطق تلك الجملة بالإنجليزية؟ هل يوظفون حراسا أجانب؟ أم أن..

- «لا يبدو هذا طريفا، سيدي، من الأفضل أن تقول هذا للقاضي!»

ماذا؟ عن أي قاض يتحدث؟ ألهذه الدرجة جريمته خطرة؟

ثم ما قصة التبجيل هذه؟ سيدي؟ سيدي؟
- «الكافيار إيه؟ لا أستطيع القول بأنني أحبه!»
كافيار؟ هل هذا الرجل مخبول؟!
الحارس قال ذلك كله بالإنجليزية وهو يعتدل واقفا بطريقة مسرحية مثيرة للريبة بحق، ثم وثب فجأة وبطريقة مضحكة وثبة بسيطة ليقول بنبرة صوت مختلفة تمام الاختلاف وبعصبية:
- «أنت لا تعطيني أي نوع من الفرص أيها السادي الدموي ال..»
ولكن لحظة، ثمة شيء ما مألوف في هذا الحوار الإنجليزي العجيب..
فجأة، انطفأ ضوء كشافه، ثم مدَّ الحارس يده لينير الغرفة بزر الأضواء، فغمر الضوء الأبيض المكان بأكمله، ولوهلة بهر بصر (رَمَّاح) بسبب اعتياده على العتمة، فطفق يفركهما بعنف، ثم نظر قبل أن..
هنا اتسعت عيناه بشدة، فلم يكن الواقف أمامه حارسا ليليا وإنما..
- «العميد (موفق توفيق)؟!»
همس بها طبعا، ولم يسمع العميد شيئا لأنه في تلك اللحظة كان يرفع قبضته صارخا:
-«لأجل السيد المسيح يا (ميلو)! هم لم يتمكنوا من صنع ضوضاء أكبر في يوم النصر!»
أجل! (ميلو)! والآخر كان يدعى..
- «(أندرو).. تذكر.. كن واثقا وأخبرهم.. لقد كانت مجرد لعبة لعينة!»
قالها العميد وهو مرتم أرضا، قالها كما لو كان يحتضر!
كادت ضحكة جنونية تفلت من فم (رمّاح) المفغور، فقد كان الحوار الدائر قبل قليل مقتبسا بأكمله من فيلم «Sleuth» أو «المحقق السري»! ذلك الفيلم الشهير الذي قام ببطولته (لورانس أولفييه) بدور (أندرو وايك)، و(مايكل كين) بدور (ميلو تيندل)!
العميد – المهزلة- ينحني لجمهور غير موجود – عدا متفرج واحد!-،

وبأرستقراطية خيلاء قال مخالفا نبرة صوته وبأفخم صوت ممكن:
- أخجلتم تواضعي!
«تففف!»
العميد ينظر بحدة، يصوب نظرات نارية كي يتأكد أكثر من سماعه ذلك الصوت، و(رَمَّاح) يسد فمه الأحمق بكلتا يديه..
أخيرا، يلق العميد بنظرة مرتابة أخيرة، ثم يغلق الأضواء، ويخرج، ويقفل الباب بالمفتاح!
تنهد (رَمَّاح) بارتياح..
ثم شهق بارتياع.. فقد أمسى مسجونا هنا مع الأسف!

****

لدقائق معدودة و(رَمَّاح) يروح ويجيء مفكرا..
لو كان المحمول معه لاتصل بالمقدم (الإدريسي) كي يخرجه من هذا المأزق المحرج، لكنه فضل تركه في حجرته كي لا يرن لأي سبب ويفضحه.. لم يكن مُلمًا بخاصية إطفاء الهواتف النقالة لسوء الحظ!
نظر إلى النافذة مفكرا، المشكلة أنه في الطابق الأول من مبنى الإدارة، لكن لا ضير من تفقد الوضع..
فتح النافذة باحثا إمكانية الوثب، فلم يجد سوى الشجيرات والأعشاب، قفزة متهورة لأبعد الحدود لكن..
ثمة أعشاب كثيفة على شكل سور طويل، هي مجرد أعشاب ولربما تحملت وزنه، لكن القفزة تبدت شاسعة مثيرة للفزع..
ظل يفكر ويحسب ويحتسب، لو تمكن من السقوط فوق سور العشب مباشرة لنجا بنسبة 50% ! لا يوجد سوى هذا الحل مع الأسف!
هكذا.. فتح النافذة بأكملها، والتقط نفسا عميقا كأنما يستعد للغوص..
ومن ثم وثب!

الفصل الثالث عشر

قال الدكتور (بيير) متحمسا:

- دعونا نلق بنظرة على إبداعاتكم!

(حسان) اكتشف بان لديه قلما وورقة، فاستغرقته رسومات دوائر قلمه على ورقته استغراقا، في حين ارتعدت شفة (نهلة) السفلى وهي تنظر بثبات المستسلم لمصيره إلى الدكتور الفرنسي الوسيم..

أما (صوفي) فقد شبكت أصابعها باسمة بثقة!

- «إذاً، فلنبدأ ب..»

الباب يُفتح بغتة، والأبصار تسارع كالبرق جهة الداخل لتفقد هويته..

- «(رَمَّاح)؟ كومان تاليه فو؟ (كيف حالك بالفرنسية)

أجابه (رَمَّاح) بنبرة صوت خفيضة:

- جه في بيان! (حالي على ما يرام!)

- ماذا قلت؟!

- أنا؟ لا.. لا شيء!

- لِمَ تأخرت بهذا الشكل؟ ادخل حالا..

قال (رَمَّاح) بسحنة ذابلة وهيئة مبعثرة وشعر منكوش:

- شكرا يا دكتور..

سار بخطا حثيثة، فتبين للجميع عرجه الملحوظ، وتساءل (بيير) مندهشا:

- ماذا أصابك؟
- سيارة صدمتني..
- My God !! هل أنت بخير؟! هل فحصك طبيب؟!
- سليمة يا دكتور، أنا بحال طيبة..
وسار إلى مقعده متجاهلا نظرات (صوفي) المُسلطة ككشاف معتقلات عليه، وفتح دفتر محاضراته والدكتور يقول دون أن يبعد بصره عن الفتى المصاب:
- إذاً.. أين كنا؟ آه! ماذا اكتشفتم عن (دونا تارت)؟
رفع (رَمَّاح) يداً مليئة بالخدوش، فأومأ له (بيير) برأسه.. حاول النهوض، لكن الدكتور طلب منه الحديث وهو جالس..
تنحنح (رَمَّاح) قبيل قوله دون الرجوع للأوراق:
- «الصديق الصغير» عمل روائي دسم يرصد التطورات الاجتماعية في الساحل الجنوبي لولاية ميسيسيبي، من الروابط العائلية مرورا بالحب إلى التمييز العنصري والطبقية، تتمركز الرواية حول شخصية الفتاة الجنوبية الموجودة بداخل المؤلفة في الأساس، وهو الشائع بين الكتاب وشخوصهم في العادة.. لكن (تارت) أرادت التعامل مع تقنية مختلفة في هذه الرواية، فإصرارها على أن مسألة الكتابة بالنسبة لها تمثل التحدي على هذا المستوى، كان يتناقض مع ما تقول إنه بالدرجة الأولى اهتمام بالعودة إلى طفولتها الجنوبية والبحث عن الحقيقة!
نظر (بيير) بثبات إلى (رَمَّاح) قبيل تساؤله:
- مسألة التناقض هذه.. عرفتها من مراجعة بسيطة للرواية؟!
ظل (رَمَّاح) صامتا، فلم يتنبه للوجوه المحملقة به في ذهول طاغ، حتى (صوفي) لم تتمكن من إشاحة نظرها عنه!
وفي النهاية ضحك (بيير) صائحا بانتصار:

- أنت قرأت رواية «الصديق الصغير» أيها المحتال!
ابتسم (رَمّاح) بسمة من تعرض لموقف محرج، في حين قالت (صوفي) بغموض وكأن الحديث قد خرج دون تنبه من بين شفتيها:
- أمر طبيعي!
نظروا لها مندهشين، وأولهم (رَمّاح) الذي حاول قول شيء..
لكنه في النهاية صمت متأملا إياها لدقيقة كاملة..

****

في «الكافيتريا» التهم طعام الغداء بنهم!
الجميع يراقبه بدهشة واستهزاء بآن واحد، لكنه تجاهلهم تماما..
التقطت أذنه صوتا يقول بتهكم واضح:
- انظروا إلى هذا الحيوان الشره! أليس مكانه في..
(رَمّاح) يتوقف عن التهام وجبته، ينهض بتؤدة، يتجه إلى مصدر الصوت المزعج، يواجه الشاب الذي ظل جالسا وسط رفاقه، ويحدقونه بنظرات السخرية والازدراء..
- «ماذا قلت لي؟»
- «قلت أن حيوانا مثلك يجب أن..»
تفاجأ – وتفاجأ رفاقه أكثر- برَمّاح يختطف عبوة العصير الكرتونية ويحشرها بغلظة في فمه المفتوح! بقبضته دقها دقا حتى كاد أن يخنق الفتى وهو يقول له بسخرية:
- لستُ أنا من يأكل أي شيء يوضع بفمه.. أيها الحيوان!
لم يتدخل رفاقه، بل ما حدث بعدها كالآتي..
نهض أحد رفاق الفتى الأحمق متجاهلا ما أصاب صديقه، وقد صفع جبهته كمن تذكر شيئا، صائحا بحماسة منقطعة النظير:

- تذكرت الآن أين رأيتك من قبل!

أنت ذلك الفتى الذي كان في مدرستنا وقبضوا عليه بتهمة التخريب! كانت قضية كتبت عنها الصحف لفترة.. أنت «الخطر الأسود» ، أليس كذلك؟!

هتف أغلب الذين سمعوا:

- «الخطر الأسود» ؟!

وقال الشاب المتسرع رغم علبة العصير المحشورة في حلقه:

- «آممم آمم»؟!

حدق (رَمَّاح) بمن حوله مندهشا، ثم تمتم أخيرا وبرضا:

- أجل! هذا أنا!

هل تنتشر الأخبار بسرعة النار في الهشيم؟ وكيف يتذكرون عقب كل تلك السنين؟!

- «(رَمَّاااح المُسااامِح)!!»

التفت الجميع ومعهم (رَمَّاح)، فأبصروا العميد واقفا محتقن الوجه، ثم..

- «إلى مكتبي.. حااالا»!!

****

في مكتبه حيث الدمى الصينية ونكاشات الأسنان، والقداحة العملاقة التي يحسبها الداخل زجاجة عطر، جلس العميد (موفق التوفيق) مواجها (رَمَّاح) بنظرات النمر المتربص بفريسته..

قال بغضب صارم مراقبا سحنة الفتى اللامبالية:

- اسمع يا بني، لقد ارتكبت جرما في الحرم الجامعي..

- لم يكن في الحرم وإنما في «الكافيتريا»!

- الأمر سيان! ثم.. الطالب الذي ضربته.. أتعلم ابن من يكون؟

- حتى ولو كان ابن رئيس الوزراء شخصيا، لا يوجد في الدنيا من يحتمل

نعته بالحيوان!

أرجع العميد ظهره للوراء كي يريحه على مسند الكرسي الوثير، وبحزم قال:

- ولو! نحن في جامعة ولسنا في سوق! لقد أذنبت ويتوجب عليّ الآن تحرير إنذار أولي لك، وبعدها الويل لك لو..

قالها مقرنا القول بإخراج نموذج إنذار ورقي، فطأطأ (رَمَّاح) رأسه متنهدا بحسرة:

- رباه! ماذا كان (ميلو) سيفعل لو كان مكاني؟

توقفت يد العميد عن تحرير الإنذار، وبذهول تساءل:

- ماذا قلت؟!

ردَّ (رَمَّاح) بتخابث:

- أقول أن (ميلو تيندل) ما كان ليسكت على موقف كهذا، لو أن (أندرو وايك) وضعه فيه طبعا.. كان سينتقم لا محالة!

ظل العميد ينظر ببلاهة إلى عيني الفتى، فقرب الأخير وجهه من عيني العميد مطلقا طلقته الأخيرة وباللغة الانجليزية وببرودة قصوى:

- تذكر.. كن واثقا وأخبرهم.. لقد كانت مجرد لعبة لعينة!

الفصل الرابع عشر

ليلا، وفي الحديقة رخامية البلاط اصطناعية البحيرة، ضغط (رَمَّاح) أزرار محموله بأصابع مرتخية، ثم وضع المحمول على أذنه مُصفرًا لحنا مرحا!
أتاه حالا صوت (الإدريسي) الرتيب متسائلا ببرودته المعهودة:
- كيف الأحوال؟
- ولا أروع! اليوم صرت مشهورا بين جميع الطلبة، وبضربة واحدة!
- عظيم.. الشهرة تجلب المعلومات بأكثر وبأسرع من الانطوائية!
- ألا تريد أن تعلم كيف؟
- ليس ضروريا..
- حتى العميد كاد أن يحرر لي إنذارا أوليا لضربي طالبا في «الكافيتريا»، لكنه اقتنع في النهاية أن يدعني وشأني..
- كيف؟
- تلك قصة يطول شرحها!
- لا أرغب أساسا بسماعها، ماذا عن السوداني؟
- اتضح لي أنه مجرد فتى مسكين تعس الحظ..
- كيف؟
شرح له (رَمَّاح) حكاية (بكري) بالتفصيل، فقال (الإدريسي) دون تغيير في نبرة صوته:

- دعه وشأنه..
أطلق (رَمَّاح) تنهيدة شبه مسترخية، ثم بدأ يسرد حكاية (داسم عواد)..
هنا لاح اهتمام في نبرة صوت (الإدريسي) عندما قال:
- واصل مراقبته..
- وهو كذلك..
- هل من شيء آخر؟
- لا، لا أظن.. انتظر لحظة.. ثمة خدمة هامة أريدها منك.. معلومات معينة عن شخص ما..
- لها علاقة بالدراسة أم بمهمتك؟
أجاب (رَمَّاح) بمكر مشعلا لنفسه سيجارة:
- بالاثنين معا !

****

يوم جديد من أيام الدراسة.. يوم مشرق ومبهج إلى حد ما!
الدكتور (أنسي) يسير وكأنه يتريض - كعادته- في طريقه إلى قاعة المحاضرات، داخل مبنى الحرم الجامعي المقدس..
كالعادة يتحاشى إلقاء تحية الصباح على الطلبة الذين يلقاهم، وعندما دنا من باب القاعة الكبير.. تفاجأ برَمَّاح واقفا بجانب الباب منتظرا!
- «صباح الخير يا دكتور (أنسي)!»
لم يرد الرجل التحية بالطبع، بل حدَّج صاحبها بنظرات طويلة مندهشة قبل أن يقول بخشونة:
- (رَمَّاح المُسامِح)؟!
- بشحمه ولحمه!
- لِمَ تقف جوار باب القاعة بدل أن تكون داخلها؟

- انتظر دخولك لأدخل بعدك.. احتراما لك يا دكتور!

- هل تسخر مني يا فتى؟!

ولوح بسبابة مهتزة من فرط العصبية قائلا بغلظة:

-حسابك سيكون عسيرا! إنه الطرد لا محالة، فقد استنفدت رصيدك من الإنذارات!

ودلف مكفهر الوجه ممتزج الحاجبين، لكن (رَمَّاح) استوقفه بأن أمسك له ذراعه..

جن جنون الرجل لهذه الحركة، وبهيجان صرخ:

- هذا تحرش متعمد! لقد تجاوزت كل حد!!

توقف كل الطلبة عما يفعلونه، استوقفهم موقف (رَمَّاح) الجريء، فأخذوا يراقبون ما يحدث وعيونهم تنبض بالإثارة المطلقة..

في حين قال (رَمَّاح) لأنسي بصوت خفيض وهو يقرب شفتيه من أذنه:

- اسمع، أنا أعلم كل شيء عنك!

- ما الذي تخرفه أيها المخبول؟!

انقلبت عينا (رَمَّاح) إلى عينين جهنميتين، وببرودة همس:

- أعلم أنك زوج سعيد مع عائلتك التي تقطن معك في سكن الجامعة، كما أعلم عن زوجتك الأخرى! تلك الطالبة الفاتنة التي تزوجتها بورقة عرفية سرا!

ألجم الذهول لسان (أنسي)، فتابع (رَمَّاح) بهدوء بارد:

- (نسرين) أليس كذلك؟ فتاة جميلة، ولكن تخيل ما سيحل بك إذا ما علم الجميع وأولهم زوجتك!

العرق يتصبب غزيرا على جبين الرجل، وبصعوبة بالغة غمغم:

- ماذا تريد؟

- لا شيء كثير، فقط السماح للطلبة بالدخول.. بعد أن تدخل طبعا!

ازداد ذهول (أنسي) وهو يقول:

- فقط؟

- فقط..
بحماسة أرجح برأسه علامة الموافقة، وبحماسة أشد هتف:
- هذا مطلب بسيط!
- ممتاز!
وقبل أن يرحل (رَمَّاح) استوقفه أمر ما دفعه للاستدارة نحو دكتوره:
- معذرة، لن أستطيع الحضور اليوم..
- لا بأس!
- ولكن ماذا عن الإنذارات؟
- اعتبرها كلها محذوفة!
هز (رَمَّاح) رأسه قائلا برضا:
- ممتاز!
ورحل وسط الهمسات المسموعة للطلبة والطالبات:
- «هذا الفتى كان زعيم عصابة الخطر الأسود الشهيرة!»
- «التخريبية؟!»
- «صه يا حمقى كي لا يسمعكم!»
- «إنه خطر فعلا، هل رأيت كيف حادثه الطاغية (أنسي) بحماسة كما لو كان يستعطفه؟»
ابتسم (رَمَّاح) ابتسامة واسعة وهو ينصت لأحاديثهم المنبهرة الخائفة، لقد اكتسب سمعة لا بأس بها في هذا الوسط الجامعي المرفه..
ثم لم تلبث ابتسامته أن تلاشت عندما تصادمت عيناه مع عيني (داسم) المسمومتين.. كان مرتكنا إلى أحد الجدران ويطالعه بنظرات كلها سخرية واستهتار..
تجاوزه (رَمَّاح) ببرودة، لكنه وبين ثناياه الخفية كان يفكر بجموح جنوني وإلحاح متزايد: ثمة ما يريب بشأن ذلك الشاب..
لكنه سيكتشفه.. حتما سيفعل..

الفصل الخامس عشر

«إذن.. في الجامعة لا أحد يصنع لك المستقبل، لا الطالبات الحسناوات ولا الدكاترة ومحاضراتهم المملة..

أنت تصنعه! إما بالمكوث والجلد - بوجود تمويل مالي مستمر طبعا-، أو الرحيل بحثا عن جامعة أخرى أو حرفة ما.. بالطبع هذه خياراتنا نحن التعساء من ذوي المنح والمساعدات الخيرية و.. والذين يعملون لصالح أمن الدولة!

كان شهرًا حافلا بالطبع، ولابد وأن الأيام القادمة تخبئ ما هو أصعب وأغرب، لذا يجب أن أكون على أتم الاستعداد..

اشتقت لوالدتي ولوضاح كثيرا، أرجو أن يكونا بأحسن حال!»

ملحوظة:

«بما أن رئيسي في العمل يرفض مراسلاتي، فقد قررت تدوينها كمذكرات، من يدري؟ فقد يأتي اليوم الذي تصير فيه هذه الكلمات أثمن ما أملك في هذه الحياة، فالمهمة التي أقوم بها محفوفة بالمخاطر..»

ملاحظاتي لليوم الأول من الشهر الثاني من السنة الدراسية الأولى

رَمَّاح المُسامِح

...To Be Continued

Opening

كان الشتاء قد حلَّ بردائه الأبيض الخلاب ناثرا الثلوج في الأرجاء، فتباينت الآراء، واختلفت ردات الفعل من شخص لآخر.. الصغار فرحون، والكبار متضايقون، وثمة فئة على الحياد، همها الأوحد راحة البال سواء أفي الصيف أم الشتاء..
واستيقظ الشاعر الكبير والفقير في ذلك اليوم شاعرا بأنفاس الزمهرير تنخر عظامه.. اصطكت أسنانه متجها نحو المدفأة بحثا عن الحرارة المريحة فوجدها معطلة، فلم يجد حلا سوى الملاءة البالية، يتلحف بها علها تقيه لسعات البرد المؤلمة..

اتجه نحو الثلاجة فوجدها معطلة وخاوية، فأطلق تنهيدة عميقة وهو يقول لنفسه:

- شاعر كبير ولا يجد قوت يومه..

كاد الموقف أن يوحي له بقصيدة عصماء عن الجوع والبرد، لكن زقزقة بطنه الخاوية جعلته يقول مربتا عليها:

- فيما بعد، الطعام أولا والشعر لاحقا!

واتجه صوب الأرفف بحثا عن المعلبات، فشعر بهره الهزيل الرمادي يتمسح بقدمه، وكأنه يترجى عطف صاحبه بأن يمنحه شيئا من الطعام ليخفف من حدة جوعه، فأزاحه الشاعر بقدمه قائلا له بتبرم:

- فلآكل أنا أولا، ومن ثم نتدبر أمرك..
وانهمك في البحث متجاهلا مواء هره المتضرع، حتى وجد أخيرا علبة سردين، فقال للهر برضا:
- لا بأس، سنتقاسمها مناصفة فيما بيننا..
نظر من النافذة ليبصر الثلج المتساقط، وتبسم لما وقع بصره على الصبية الذين يتقاذفون بالثلج، تذكر لما كان في مثل سنهم كيف كان يلهو بالثلج ويحبه، والآن أفضل ما يمكنه فعله في مثل هذه السن هو إيجاد فتاحة علب!
وبعد أن وجدها تمكن من فتح العلبة بمشقة، فأفرغ قليلا منها في طبق الهر ووضع الباقي في طبقه..
التهم طعامه في زمن قصير، فحمل طبقه إلى المغسلة وهو لا يزال يتضور جوعا، والأدهى اكتشافه بأن المياه مقطوعة، فآثر تأجيل الجلي والجلوس على الأريكة لتدخين الغليون..
جلس على الأريكة القديمة وهو يبحث في جيوبه عن علبة أعواد الثقاب، وجدها أخيرا، لكنها كانت خاوية!
شعر بغم جاثم على أضلعه، وأحس بوحدة قاتلة وتعاسة مؤلمة كاد أن ينتحب بسببهما..
اقترب الهر وكأنه يواسي صاحبه، فرفعه الشاعر الحزين ووضعه في حجره، ثم أخذ يمرر أنامله على وبره الرمادي مخاطبا إياه بود كما لو كان يفهم لغة البشر:
- لم يتبق لي في هذه الحياة المقبضة سواك!
وهنا تصاعدت طرقات خشنة على بابه، فتساءل في حيرة:
- ترى من سيحضر لزيارتي؟ الناس نسوا شعري وأقاربي جميعهم قد فارقوا الحياة..
وظل ساهما متجاهلا الطارق حتى كرر طرقه على الباب بإصرار أكبر..
نهض الشاعر بعدما دسّ قدماه في خفيه، واتجه نحو الباب متسائلا بصوت مرتفع:

- من الطارق؟

لم يُجب أحد، فتوجس الشاعر خيفة من الأمر، من تراه يكون؟ أهو لص جاء بغية سرقته؟ ومنذ متى يطرق اللصوص الأبواب؟

وماذا سيسرق من هذه الغرفة العطنة؟ إن منظر الباب وحده..

- «من الطارق؟»

- «افتح أيها الشاعر..»

كان صوتا عميقا يأمر لا يطلب، ووجد الشاعر نفسه يفتح الباب مدفوعا بقوة غريبة مجهولة، فوجد على عتبته شخصا فارع الطول، عريض الأكتاف، يرتدي ثوبا فضفاضا غريبا أزرق اللون ذكره بمسوح الرهبان.. ولم يتمكن الشاعر من رؤية وجهه لأنه كان يسدل غطاء رأس عريض عليه..

وعندما دلف شعر الشاعر بازدياد البرودة، اقشعر بدنه واصطكت أسنانه بشدة، في حين وقف الغريب متأملا أرجاء المنزل البائس ببرودة مخيفة..

سأله الشاعر وأنفاسه الباردة تخرج عبر فمه:

- من أنت أيها السيد؟

نظر الرجل المخيف إلى الشاعر متسائلا:

- مقطنك؟

- بالطبع..

- وهذا هرك؟

- أجل..

- أنت ذلك الشاعر الشهير، أليس كذلك؟

تمتم الشاعر بحسرة متجها صوب الأريكة الممزقة:

- كنت!

- كنت؟

- الشعر يا سيدي لا يطعم المرء خبزا..

- وهل سأظل واقفا هكذا؟

تنبه الشاعر إلى نسيانه أصول اللباقة، فأسرع بسحب كرسي اتجاه الضيف الغريب قائلا له بخجل:

- أرجو المعذرة، تفضل بالجلوس هنا..

جلس الضيف على الكرسي قائلا بصوت هادئ:

- الشعر موهبة أيها الشاعر..

- معك حق، لكن ما فائدتها إذا ما هلك صاحبها جوعا يا سيدي؟

- يكفي أن اسمه سيخلد أيها الرجل..

- ربما الحق معك يا سيدي.. لم أتشرف بمعرفتك بعد..

صال الغريب وجال أرجاء المكان ببصره الذي ذكر الشاعر ببريق عيون هره في الليل، فشعر بخوف مبهم، ثمة شيء يثير الخوف والاستغراب بخصوص هذا الضيف الغريب والمخيف..

وهنا دمدم الضيف بنبرة مخيفة:

- ألن تقدم لي شيئا أيها الشاعر؟

- أرجو المعذرة يا سيدي، لكنني لا أملك سوى الماء..

- الماء عصب الحياة أيها الشاعر! ما الذي يعيب الماء؟

- لا شيء يا سيدي، أرجو المعذرة..

وهرول باتجاه الثلاجة ملتقطا بسرعة كوبا من أحد الأرفف وهو يقول لنفسه:

- يتحدث بثقة ولهجة من اعتاد إعطاء الأوامر، يبدو وأنه شخص مهم للغاية..

وعاد بالماء، فقدمه لضيفه على استحياء قائلا:

- أرجو المعذرة يا سيدي، الثلاجة معطلة ولا يوجد داخلها ما يصلح للتقديم..

- مكان بائس أيها الشاعر، وحياة بالغة العسر..

- الشكوى لله يا سيدي، ألم أقل لك؟

- كفَّ عن الثرثرة العقيمة أيها الشاعر!
صمت الشاعر وقد بدا في حيرة من أمره، فقال له الضيف وهو يتناول كوب الماء من يده:
- ألم تتزوج بعد أيها الشاعر؟
أجاب الشاعر متجاهلا ألم يده الذي أصابه من جراء ملامستها يد ذلك الغريب فقد كانت باردة كالصقيع:
- لا يا سيدي، ما من امرأة ترضى لنفسها معيشة حقيرة كهذه..
- ما علينا، أريدك أيها الشاعر أن تخلدني في قصيدة!
- أستميحك عذرا؟
- كما سمعت، وسأجزل لك العطاء، أريد قصيدة عني، قصيدة يتناقلها الجاهل والمتعلم على حد السواء!
- ولكن يا سيدي..
صوب الضيف الغامض بنظرة باردة إلى الشاعر الذي جمدت الدماء في عروقه، وسمع صوتا كزئير العاصفة:
- أتعصي لي أمرا أيها التعس؟!
- معاذ الله يا سيدي! لكني لم أتشرف بمعرفتك بعد لكي..
وهنا تصاعد طرق مفاجئ عنيف على الباب، فرفع الشاعر عقيرته بالصياح:
- من بالباب؟
- ضيف، افتح الباب أيها الشاعر!
شعر الشاعر بدهشة عميقة، زيارة أخرى، وفي يوم واحد، والله وحده أعلم بكنه الزائر الجديد!
سأل الشاعر ضيفه:
- هل أفتح يا سيدي؟
- لِمَ تسألني؟ أهي داري أم دارك؟

اعتبره الشاعر ردا بالإيجاب، فأسرع إلى الباب قبل أن يكسره الواقف وراءه بطرقاته القوية..

كان القادم شخصا متين البنية، يرتدي ثيابا حمراء أنيقة، لكنه يخفي وجهه بقناع غريب..

سأل الشاعر بنبرة مستعرة:

- أنت ذلك الشاعر الشهير، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي..

- ما هذا؟ إلى متى سأظل واقفا هكذا أيها الشاعر قليل التهذيب؟

- أرجو المعذرة يا سيدي، تفضل بالدخول..

فما إن ولج الغريب الجديد حتى شعر الشاعر بدفء شديد، دفء لذيذ ورائع بدد البرودة التي بالداخل تماما، فشعر بالبهجة والارتياح!

ولكن ما إن وقع بصر الضيف البارد على القادم الجديد الذي نشر الدفء في أرجاء المنزل، حتى هبَّ واقفا وهو يهتف غاضبا:

- أنت؟! ما الذي جاء بك إلى هنا؟!

- جئتُ كما جئتَ أنت!

- لكني جئتُ قبلك!

- الأمر عندي سيان، أفضل الموت على رؤيتك تظفر بمجدٍ لا تستحقه!

- وما الذي جعلك تفكر بأنك الذي تستحقه أيها المتبجح؟

- يبدو وأنك نسيت من أكون..

- بل أنت الذي نسي من أكون أنا!

قال الشاعر محاولا تهدئة ثائرتهما:

- مهلا يا سادة، هل تعرفان بعضكما البعض؟

- عز المعرفة أيها الشاعر، ولا شأن لك بالمزيد، حسبك أن تعلم بأنني أمير..

صاح الزائر الدافئ بحنق:

- وأنا ابن شحاذ؟ أنا أمير أيضا ولست بأي أمير!
لاحظ الشاعر متعجبا بأن ثائرة الضيف الذي يرتدي الثياب الحمراء تحيل أرجاء منزله إلى فرن، فقال له والعرق يتفصد من جبينه من شدة الخوف والحر الشديد:
- يا سيدي الأمير، أرجو أن تهدأ فالأمر لا يستدعي كل تلك العصبية..
هبَّ الرجل الذي يرتدي الأزرق صارخا:
- ماذا تصنع يا أحمق؟ أتهدئه وتتركني؟
انقلبت الأجواء لصقيع كاسح كاد معه الشاعر أن يتجمد بردا، فهمس بنبرة شديدة الاضطراب:
- بالله عليك يا سيدي الأمير ألا تغضب، فالأمراء مشهود لهم بالحِلم والترفق بالعباد!
- في هذه صدقت أيها الشاعر، ولك على ما ذكرته مكافأة!
ونهض متجها إلى الثلاجة، وبرفق مسها بأنامله.. فتحول اضطراب الشاعر وتوتره إلى ذهول عارم عندما ارتفع أزيزها، فأدرك بأن لمسة الضيف البارد قد أعادت الحياة الكهربائية لثلاجته المعطلة!
نهض متهلل الأسارير ناحيتها، تفحصها ببصره ويديه قائلا بسعادة:
- اللهم لك الحمد! لستُ مضطرا الآن إلى إصلاحها بتكلفة باهظة، شكرا لك يا سيدي!
بدت مخايل الفخر والغرور على الضيف البارد، فلما ارتفعت درجة الحرارة في المنزل أدرك الشاعر بأن ضيفه الآخر صاحب الثياب الحمراء الفاخرة قد غضب!
قال الضيف الغاضب متجها صوب المدفأة:
- أتسمي هذه مكافأة؟ صبراً..
فما إن مسَّها حتى عاودت العمل، فخفَّ الشاعر إليها صائحا بوجه متهلل:

- معجزة! فقد يأس العامل الذي استقدمته من إصلاحها .. لك جزيل الشكر أنت أيضا يا سيدي!

تبسم صاحب الثياب الحمراء متباهيا بصنيعه، فاشتد غضب صاحب الثياب الزرقاء، فاستحال الحر بردا..

قال كالمزمجر:

- أيها الشاعر، ألا تشعر بالعطش؟

- بالفعل! أشعر بعطش شديد، فقد جفَّ حلقي من كثرة الهتاف كي أهدئكما..

- تناول بعضا من الماء..

وناوله الكوب الذي كان الشاعر قد قدمه إليه كي يشرب منه، فتناول الشاعر الكوب قائلا:

- بسم الله .. الله! ما أبرد الماء وما أطيبه!

تبسم الرجل البارد بتخابث قائلا:

- اشرب أيها الشاعر، فالماء هو عصب الحياة!

ولم يتحمل الرجل الحار أكثر، فصاح في الشاعر بصوت محتد:

- أيها الشاعر ألا تشعر بالجوع؟

- الجوع؟ إنها لكلمة هينة لما أشعر به حقا يا سيدي!

- اذهب وافتح باب الفرن..

أسرع الشاعر صوب الفرن، فما ان فتحه حتى شهق من فرط الدهشة، فقد وجد دجاجة مشوية بعناية فائقة جعلته يصرخ غير مصدق:

- طعام في الفرن! قد عاد زمن المعجزات دون أدنى شك!

وصاح الضيف البارد في غضب:

- لكن هذا غش!

تبسم الضيف الدافئ قائلا بسخرية:

- لن تجد أحدا سواك يقول هذا!

وتلفت إلى الشاعر فوجده قد أتى على الدجاجة كلها بغضون ثوان.. هو وهره التعس!

بدت الدهشة عليهما وهما يتابعانه، في حين استرخى هو قائلا بعدما تجشأ:

- الحمد لله!

وبابتسامة هانئة أخرج غليونه وشرع بدس التبغ داخله، ففرقع الضيف الدافئ بإصبعيه قائلا:

- دعني أشعله لك..

بالفعل تصاعد دخان التبغ إثر شرارة بسيطة انبعثت داخله، فشرع الشاعر يدخن مستمتعا بشبعه من الطعام، فاشتد غضب البارد حتى غمر أرجاء المكان ببرده، فتناول الهر من ذيله وصاح قائلا:

- أيها الشاعر، أتريد أن أجمد لك هرك هذا؟

صاح الشاعر بذعر وهو يمد يده باتجاه هره المسكين:

- لا! أرجوك لا تمسه بسوء!

- حُسم الأمر إذاً، دوِّن قصيدتك عن البرد وعظمته، وعن جنده من الرياح العاتية، والأعاصير الهوجاء، والثلج الأبيض الجميل، والصقيع البارد المميت!

رفع الدافئ كفه بغضب، فاشتدت الحرارة في أرجاء المكان، وقال:

- أظنك أيها الشاعر تفضل إنقاذ بيتك من الاحتراق!

- أرجوك لا تفعل!

- إذاً فنظم القصيدة عن روعة الدفء في الشتاء، والنار التي تضيء لك الدرب في الظلام، وتشوي لك طعامك النيء، وعن نضج الفاكهة وطيب مذاقها في فصل الصيف..

لا تنس ذكر قوة النار وعظمتها، وكيف أن سائر البشر ما كانوا ليعيشوا من دونها!

رفع الضيف البارد هر الشاعر من ذنبه عاليا قائلا بقسوة:

- الخيار لك أيها الشاعر!

رأى الشاعر ذيل هره المسكين يتجمد ببطء، في حين برزت شعلة من اللهب في كف الضيف الآخر! فصرخ بأعلى صوته:

- لحظة أرجوكما، لدي حل وسط..

- ما هو؟

- سأقول شِعرًا فيكما معا، فنحن البشر نقر ونعترف بأن البرد والدفء، الماء والنار، الجليد واللهب، كلها من نعم الله علينا، من دونهما لا حياة لبشري على الكرة الأرضية بأسرها!

تبدت لمحات تفكير عليهما قبل أن يقول الضيف البارد:

- كلام جميل أيها البشري.. لكنني لا أوافق عليه!

وأمن الضيف الدافئ بخشونة:

- وأنا كذلك، أنا أهم من هذا الأحمق المتعجرف بكثير!

- من الذي تنعته بالأحمق المتعجرف؟!

- أنت!

- أنا؟! إذاً خذ!!

وتلقى الضيف الدافئ كرة جليدية يبدو وأنها تسببت له بأذى شديد، فصاح موجها قبضته نحوه:

- ستدفع ثمن فعلتك الرعناء!

وانطلقت شعلة من اللهب، فصاح الشاعر وهو ينبطح أرضا:

- سترك يا ألله، لقد جن الطقسان!

وأفلت الضيف البارد هر الشاعر كي يتصدى لتلك الضربة الآتية، فهرع الأخير نحو صاحبه الذي تلقفه بلهفة صائحا:

- تعال إلى بر الأمان! يبدو وأن الصراع سيحتدم..

لكن الصراع لم يزد عن دقائق معدودة اختلط فيها الحابل بالنابل، والثلج باللهب.. ولما نهض الشاعر ببطء وسط سحب بيضاء كثيفة باحثا عن ضيفيه، وجد أنهما قد تلاشيا!

تساءل بنبرة حائرة خفيضة:

- أتراهما قتلا بعضهما أم ماذا؟

بقي لثوان واقفا يُسائِل نفسه إن كان ما حدث حلم أم علم، من الواضح أنه علم، ولكن ما سبب حدوثه؟ ولماذا عنده بالذات؟

وفي النهاية، داعب رأس هره ملتفتا إلى المدفأة والثلاجة قائلا لنفسه بغبطة:

- المهم أنهما رحلا وتركا لي أشياء جديدة!

صيف النهار
وشتاء الليل

الفصل الأول

قال الدكتور (أنسي) دكتور مادة Research Methodology على عجالة وبقبضتين مضمومتين فوق سطح طاولته داخل القاعة:

You can always tell a great story when you›re -forced to ! interact with it

تفكر (رَمَّاح) في ترجمة تلك العبارة ليجد أنه يؤيدها من الصميم..

تذكر شذرات من حياته التي تبدو كقصة سوداوية، ثم وجد نفسه - وبإلحاح- يتذكر تلك القصة الطريفة في محاضرة علم الاجتماع..

دكتور علم الاجتماع لا بأس به، ويحاول - على غير عادة دكاترة الجامعة العرب- تقديم العون لهم، عكس المتعارف عليه بين زملائه ممن ركبهم الغرور الأعمى والتحفظ المصطنع..

تذكر قول الدكتور برصانة في تلك المحاضرة:

- «ثمة حكاية حصلت معي منذ مدة قريبة، وقد أحببت مشاركتكم بها..»

تمكن الرجل الأشيب من شد انتباههم.. انتباهه هو على الأقل.. فأصاغ السمع خافضا يده الملتصقة بخده لما كان ساهما..

- «كنتُ واقفا أمام شباك عامل الطباعة والتصوير، أنتظر ريثما يفرغ من تصوير أوراقي التي بين يديه، عندما قال لي: آسف يا دكتور، لكن أوراقك لن تكون جاهزة قبل ساعة..

سألته ما إذا كان متأكدًا لأني بحاجتها اليوم، فأجابني بثقة: إن شاء الله!
وكان هنالك دكتور جنسيته بريطانية يقف إلى جواري كي يُصوِّر بعض الأوراق هو الآخر، فما إن هممتُ بالرحيل حتى استوقفني بقوله باسما: أنصحك بالعودة غدًا!
سألته عن السبب، فأجابني: ألم تسمع ما قاله؟ لقد قال لك «إن شاء الله»! ولم أستوعب تماما مقصده إلا عندما شرح لي: «كلما أتيتُ لسؤاله عن أوراقي قال لي: إن شاء الله.. فما دام قد قالها لك، فمعنى ذلك أنه لن ينجز أوراقك في الوقت الذي ذكره لك!»
تبسم أغلب الطلبة لطرافة الحكاية، لكن الدكتور بدا متجهما لما قال كأنما يُحادث نفسه:
- قد باتت عبارة «إن شاء الله» رمزًا للكذب!

****

وتأمل (رَمَّاح) وضع الطلبة الحضور حوله في محاضرة دكتور (أنسي)..
وجد وجوها ذاهلة، خاوية، بعضها سارح في ملكوت الله، والآخر في قائمة «البلاك بيري» الذي يندر وجود من يسير من دونه هذه الأيام!
ابتسم في سِره متذكرًا ذلك المقطع الشهير من مسرحية «العيال كبرت»، عندما ألقى الراحل (أحمد زكي) خطبته العصماء على أشقائه بصدد موضوع «هروب الممول الأول للعيلة» وهو والدهم، في حين كان (سعيد صالح) يومئ برأسه متظاهرًا بالفهم، ومن ثم يهز وسطه على طريقة الراقصات!
لم ينجح (رَمَّاح) في كتمان قهقهته هذه المرة، فرفع (أنسي) وجهًا متحفزًا غاضبا، ثم هتف بعقيرة مزلزلة:
- من الوقح الذي..؟!
أسرع (رَمَّاح) برفع راحة يده قائلا بتهكم:
- أنا يا دكتور!

امتقع وجه الرجل متذكرًا ذاك الطالب - الوغد- الذي يمتلك سيطرة فتاكة كالطوق على عنقه، فتنحنح متظاهرا بالوقار وهو يقول محدِّجا إياه بنظرات لو أنها تفتك:

- لِمَ تضحك؟

- تذكرتُ سعيد صا.. تذكرتُ موقفا طريفا.. عذرًا!

- انتبه للمحاضرة..

- أمرك!

موقف كان كافيا لإشعال جذوة ملأى بالهمسات:

- «الخطر الأسود!»

- «كالعادة!»

- «طالب وقح فعلا..»

- «بل هو جريء!»

- «جريء لحد الوقاحة!»

لقد استيقظ الجميع من سباتهم بفضله!

تظاهر بعدم الإصغاء وان ابتدأ يشعر بالضيق فعلا..

كانت شهرته قد بلغت غاية لن يسعد بها (الإدريسي) كثيرا لو أدرك سببها، هذا إن لم يكن يعلم سلفا، ذاك الرجل المخيف الذي يراسله بالأوامر ويُملي عليه ما لا يتمنى تنفيذه!

المغزى من الشهرة كانت شعبية بين الطلبة تدفعه دفعا إلى عالمهم كي ينبش في أسرارهم، لكن شهرته الجديدة تلك جعلتهم مرتابين قلقين تجاهه أكثر!

لكن هذه الجامعة تستحق فعلا، فقد كانت غطرسة الدكاترة وغرور الطلبة واللوائح والقوانين المتعنتة كفيلة بدفعه في قعر الجنون.. كان يجب أن يتصرف ولو قليلا على سجيته، حتى ولو ارتكب خطأ يعاقبه (الإدريسي) عليه بشدة..

ولكن عندئذ لن يتمكن من مواصلة الدراسة، والأهم هو نفقات والدته البائسة وشقيقه التعس.. يا له من موقف عصيب شبيه بالأفلام الهندية!

في المدرسة كان يزهو بمشاغباته العديدة، لكنه الآن في الجامعة الملكية اللعينة، وفي مهمة تتعدى مسألة التخرج كثيرا!

كان (رَمَّاح) يفكر ويفكر بلا هوادة أو انقطاع، فلم يتنبه لانقطاع التيار الكهربائي إلا لدى سماعه أصواتا ضاجة ملأى بالتبرم والاستنكار..

- «هدوء في القاعة!»

- «لكن الكهرباء مقطوعة يا دكتور!»

نظر (رَمَّاح) مندهشا، فأبصر فتاة من حملة «البلاك بيري» تلوح بيدها كالمُهددة، رمقها بنظرة طويلة كي يصدق، وخواطره تتدفق في ذهنه كتيار بلا انقطاع: انقطاع تيار بسيط لا يمكنكم احتماله؟

كيف لو عاش واحد منكم في مسكني حيث تنقطع الكهرباء ست أو سبع مرات - على الأقل- أسبوعيا! وحيث يمتد انقطاع التيار نصف يوم - وأحيانا يوما كاملا-، ماذا كنتم ستصنعون عندئذ؟!

****

- «الجو حار..»

قالها أحد الطلبة وهو يفك زر ياقته لاهثا، فنظر (رَمَّاح) باتجاهه موافقا إياه في سِره..

حر بغيض، والأسوأ أنه بزغ لحظة انقطاع التيار الكهربائي!

أم ان التكييف المركزي البارد زيَّف لهم حقيقة الجو؟

كان بعض الطلبة يجففون عرقهم المتفصد عن جلودهم بالأكمام المشمرة، في حين التمع العرق في أعناق وجبهات الطالبات كحبيبات لؤلؤية، وجاهدت واحدة للنطق عندما دمدمت:

- رباه! حر فظيع! فظيييع!

تنفس (رَمَّاح) بعمق شاعرًا بثقل طفيف بين ثنايا ضلوعه، الرطوبة قاسية، والجو تحول إلى ما يشابه المرجل..

- «حر لا يطاق! فظيييع!!»

وهنا سقطت فتاة فاقدة الوعي، فاصطنع الطلبة دائرة حولها، وتعالى صياح بعض الطالبات.. تدخل البعض متظاهرا بالحكمة وسرعة البديهة في مثل تلك المواقف.. فبدأ طالب بصفع الفتاة صفعات خفيفة على وجهها، وأخذ آخر يصفعها بلطف على راحة يدها، وفي نظرات كليهما هيام كأنهما فارسا أحلام يزمعان إيقاظ الجميلة النائمة.. ولم يستبعد (رَمَّاح) أن يحاول أحدهما منحها قبلة الحياة!

- «جميعكم.. ابتعدوا عنها حالا، دعوها تتنفس يا حمقى!»

بالطبع لو كان قائل تلك العبارة فتى آخر لتجاهلوه أو أبرحوه ضربا لوقاحته، ولكن ما دام القائل هو «الخطر الأسود» فحتما سينفذون الأمر ودونما إبطاء!

دنا (رَمَّاح) من الفتاة فاقدة الوعي، كان في يده كوبا بلاستيكيا ملأه بالماء البارد من براد قريب بينما الكل منشغل بمحاولة إيقاظ الفتاة بالوسائل الرومانسية..

انتظر لحظة ارتشف خلالها قليلا من الماء كي ينعشه، ثم - وبلا كياسة- بخ الماء على سحنتها كما يصنع الكواء الشعبي بالثياب! لتستيقظ وهي تشهق صائحة بذعر:

- يا حيوان!!

تماما كما توقع.. مجرد محاولة للتظاهر بالدلال الزائد.. أنا الفتاة الجميلة الرقيقة التي لا تطيق هذا الحر الجهنمي! ساعدوني يا أوباش!

صحيح أنه حر فظيييع.. لكنه لا يزال محتملا.. ليست بالمسألة الهامة!

الفصل الثاني

«ماذا أصنع هنا؟ وفي هذا الطقس الجهنمي؟

حقيقة لا أعلم.. هل أحاول إرضاء نفسي؟ أم أسعى لإرضاء «القيادات العليا» التي أرسلتني إلى هنا؟

لو أن ثمة رهاب للجامعات فانا حتما من المصابين به.. في المدرسة كان التأقلم سهلا وسريعا، خصوصا وأن الأساتذة يلحون علينا لطرح الأسئلة، والاستذكار، وينبهوننا من مخاطر المستقبل، ويدفعون من جيوبهم أحيانا ثمن تصوير بعض المذكرات المُلحة لامتحانات نصف وآخر السنة..

يطاردوننا في الفسحة كي لا نلوث ساحة المدرسة، يزجرون من يحاول التشاجر في طابور المقصف الغوغائي، ويعاقبون المدخن في دورات المياه بلا رحمة.. كانوا بمثابة آباء قساة لنا..

ولكن هنا.. في هذا الوكر المسمى بالحرم الجامعي المقدس.. لا أحد يكترث لأحد! إن حضرت كان بها، وإن لم تحضر فتلك مشكلتك، الدكتور ليس مسؤولا عن تأخيرك، ولا يهمه كثيرا إيصال المعلومة إليك!

إلا من رحم ربي!

لكن، أليس من المحبط أن يكون الدكتور «المكترث» أجنبيا في العادة؟ محاضراته سهلة، سلسة، يمازح الطلبة قاصدًا صداقتهم، ويسأل عمن غاب

باكتراث حقيقي مثير للتساؤل، في حين يجد الدكتور «العربي» تلك السُبل أقرب إلى ألاعيب أطفال!

حتى أن (بيير) لا يملك سكرتيرة!

عذرا.. أقصد أن الدكتور الأجنبي لا يملك سكرتيرة، بابه مفتوح لمناقشتنا في محاضراته طيلة الوقت، خفيف الظل مبتسم طيلة الوقت، في حين تجد الدكتور (أنسي).. عذرًا.. أقصد الدكتور العربي عابسا متجهما طيلة الوقت، كأنه آتٍ من مصيبة وراحل إلى مصيبة!

حالة الدكاترة في كل زمان ومكان مثيرة للاهتمام حتما، ولو كنت أدرس الطب النفسي لكتبت أطروحة الدكتوراه عنهم وعن عُقدهم!

كل هذا تحت إدارة مدير متسلط، لا يظهر لنا وجهه إلا لإعلان فرمانه الرادع التالي، بخصوص تدخين بعض الطلبة في الكافيتريا، أو بقائهم في الملعب حتى الحادية عشرة مساء للعب كرة القدم، رغم أن الكشافات الضوئية تنغلق أوتوماتيكيا تمام الساعة العاشرة!

وما هذه الجامعة الملكية التي ينقطع فيها التيار الكهربائي بسهولة رغم انتساب أولاد الأكابر إليها؟ أين تراها المولدات الاحتياطية؟!

العميد عاشق فيلم «المحقق السري»!

مشرف السكن الذي لا يرى أبعد من أنفه..

الدكاترة أباطرة الغطرسة..

الطقس الحار والرطوبة القاسية..

المحاضرات المُضجرة..

الأريب المدعو (داسم عواد)!

طعام الكافيتريا غالي الثمن..

المرشد الأكاديمي ومكتب القبول والتسجيل..

ال..

ماذا أصنع هنا بحق الله؟!

حقيقة.. لا أعلم..

رباه.. إن الطقس حار فعلا.. فظيييع!»

الحائر في أرض الحيرة.. الحارة!

رَمَّاح الُمسامِح

الفصل الثالث

قال (بكري) وقد تقرفص بفانلة غارقة بالعرق مُغطيًا رأسه بمنشفة مبلولة بالماء البارد:

- الاحتباس الحراري هو السبب يا زول!

أرجح (رَمَّاح) برأسه، فهتف (بكري) بانتصار:

- طبعا الاحتباس الحراري! أنت توافقني الرأي لأن..

- لا.. أنا أعتقد أنك أحمق فقط!

أبدى تبرما وهو يمرر راحة يده على المنشفة، في حين دمدم (رَمَّاح) بسحنة مكفهرة محاولا تناسي وضع الكهرباء المقطوعة:

- موجة الحر هذه غير طبيعية! عقب صلاة الفج[illegible]ان الجو باردًا إلى حد ما، ثم ابتدأ كل شيء لدى انقطاع التيار الكهربائ[illegible] أن ألج المحاضرة كان الجو معتدلا، طبيعيا، أتذكر ذلك [illegible]ء إلى سعير عقب انقطاع الكهرباء!

- إذاً فأنت نحس!

- ليس إلى تلك الدرجة! أحسب أن..

قاطعه (بكري) لاهثا:

- فاتتك مشاجرة عنيفة حقا يا زول، فالشباب فقدوا أعصابهم عقب مدة من انقطاع التيار الكهربائي عن السكن، سمعت صراخا خلف أبواب

غرفهم الموصدة، شتائم مقذعة بخصوص باب ثلاجة مفتوحة، وسماعة هاتف في غير موضعها و..
هنا قاطعه (رَمَّاح) وهو يلهث بدوره:
- حتى المشرف كان يزعق عبر سماعته، وأثناء مروري بحديقة الجامعة أبصرت ثلة من البستانية يتشاجرون بعنف!
- إن هذا لطريف حقا.. آآآي!
- بل إنه مخيف.. مخيف حقا!

****

الساعة الواحدة ظهرا..
امتلأ حمام السباحة عن آخره بالطلبة، حتى أولئك الذين يتمرنون في «الجيم»، تركوا الأثقال ومعدات رفع الأوزان المعدنية، وهربوا إلى الماء عله ينسيهم موجة الحر الكاسحة..
جاء مدرب السباحة غارقا في عرقه، وأعلن عن انتهاء الوقت المخصص لاستخدام بركة الاستحمام، فتلقى عشرات الشتائم المقذعة!
لم يصدق أنه يُشتم من قبل أولئك الصعاليك - وهو الذي لم يُشتم من قبل-، وظل ينفخ في صافرته حتى أصابه الإعياء، وزاد من غيظه تجاهلهم الواضح له، فأصابت حالة من البذاءة لسانه هو الآخر، وظل يشتمهم ثائرا وآمرا إياهم بالخروج من البركة حالا..
هنا، خرج له من الماء طالب مفتول العضلات كما لو كان خارجا من أسطورة إغريقية ما، ولوح بقبضته مهددا وهو يصرخ في توحش:
- أتطردنا أيها ال..؟! أهو حوض أهلك؟!
كان الغضب قد استبد بالمدرب الكهل، فلم يتراجع، بل واصل الصراخ والشتم حتى فوجئ بلكمة قاسية تخرسه، ثم ببدنه شبه المكتنز يرتفع

عاليا في الهواء، وفي الثانية التالية كان يهوي في القعر العميق من بركة السباحة!

هلل الطلبة وبشدة، فأطلقوا عويلا وصفيرا كما لو كانوا في مباراة مصيرية من مباريات كرة القدم التي يبزغ فيها التعصب الدموي، ومن ثم واصلوا السباحة باستمتاع..

ولم يلاحظ أحد أن المدرب قد غاب لفترة أطول من اللازم أسفل الماء!

****

عندما حدث الارتطام في تمام الساعة الثانية إلا ربعا لم يكن ثمة شهود سوى سائقي السيارتين المتسببتين بالحادث..

الطريف في الأمر أن موقف السيارات خلا من أية مركبات أخرى، ورغم ذلك تراجع الطالب بطيش وسرعة بسيارته ليصدم رفرف السيارة التي وراءه بعنف، والتي كانت مركونة في حالها..

لم يهرب الطالب ولم يذعر، بل هبط محتقن الوجه ساخطا، وهبط دكتور مادة علم الاجتماع بدوره متخليا عن وقاره وبدلته على المقعد الآخر الذي بجواره..

صرخ الطالب مؤرجحاً قبضته رغم أنه المخطئ:

- أأنت أعمى؟!

كان العرق قد رسم بقعا مبلولة داكنة عند صدر وإبطي الدكتور، الذي لم يُجب سوى بلكمة ماحقة تلقاها فك الطالب فأسقطته أرضا!

هنا تذكر الطالب – الذي نزف بغزارة من شفتيه- أنه يخبئ مطواة ذات مقبض فضي مزخرف في جيب سرواله «الجينز» من الخلف!

****

الساعة الآن الثالثة والنصف في سكن الطالبات..

فجأة، تسقط (أميرة) الطالبة المجتهدة أرضا بجوار سريرها، وقد ارتجف بدنها الرشيق بعنف كأن تيارا كهربائيا يسري هنالك.. تنتفض بلا توقف والرغوة البيضاء المقززة تطفح بغزارة من شدقيها الممتلئين..

كان الباب موصدا من الداخل بالمفتاح، وقد تصاعد صوت طرقات يكاد لا يتوقف..

- «افتحي يا (أميرة)، سنخرج قليلا من هذه «الكتمة»، ألا ترغبين بمرافقتنا؟»

- «يبدو وأنها نائمة..»

- «هلما بنا إذاً، هي الخاسرة!»

وتبتعد الأصوات مواصلة تبادل الآراء الحانقة بخصوص موجة الحر التي لا ترحم.. في حين بدت (أميرة) وكأنها قد همدت بمكانها للأبد!

الفصل الرابع

الساعة الآن الرابعة إلا ربعا عصرًا..

غالبية الأبواب باتت موصدة في السكن.. وقد خيم هدوء مريب في الأرجاء، كما لو كان جميع الطلبة قد غابوا في سبات عميق..

موجة الحر الشنيعة لم تهدأ بتاتا، رائحة العرق الخانقة منتشرة في الهواء، وقد حولت الرطوبة جسد (رَمَّاح) إلى نوع من أنواع المُخلل الرديء، فتخلص من فانلته بكراهية متذكرا أن المياه مقطوعة بدورها مع الكهرباء! وإلا للبث أسفل الدش البارد حتى تزول الحرارة الجهنمية ولو استغرق ذلك أياما بلياليها!

- «إذاً فالجامعة الملكية بإمكانها التعرض لذات الظروف التي تتعرض لها أية جامعة أخرى!»

كان يراقب شاشة محموله محاولا التقاط إشارة ما، لعل المقدم (الإدريسي) يتساءل الآن بغل واغتياظ – من فرط الحر- عن سر امتناع «غلامه» من الاتصال رغم الاتفاق السابق الذي شدد عليه!

لا إشارة..

في الواقع لا شيء على الإطلاق! المحمول تحول إلى قطعة حجر صماء بعدما كان مفعما بالحياة الصاخبة، رنات ورسائل وما إلى ذلك!

تنهد (رَمَّاح) بعمق، وتفكر هنيهة في حجم هذه المشكلة التي بات فيها الآن..

سيغضب (الإدريسي) حتما، لكنه فعل ما يتوجب عليه فعله، طبعا الرجل منع الاتصال به عن طريق قنوات أخرى كالهواتف الخارجية داخل الكبائن أو البريد الالكتروني، لكنه لم يمنعه من الاتصال بوالدته وشقيقه المسكين لتفقد أحوالهما..

كان يتذكر جيدا رقم هاتف أم (رَيَان) جارتهم، فشقتهم بلا هواتف لسوء الحظ.. وبينما هو يضغط أزرار الهاتف من الكابينة محاولا إيجاد مبرر ملائم لغيابه الذي طال هذه المرة، وجد أن الحرارة مقطوعة تماما عن هذا الهاتف كذلك!

«ماذا أصنع إذاً؟ هل أقترض هاتفا نقالا من أحد الطلبة؟»

كانت فكرة لم يحبذها على الإطلاق، فعلاقته بهم لم تكن وطيدة إلى تلك الدرجة، ربما لو سأل (بكري)، فالأخير يدين له بالكثير مذ تستر عليه في موضوع انتحال شخصية طالب منتسب لهذه الجامعة كي يظفر بمسكن ملائم!

نظر إلى ملعب السلة الذي كان ضاجًا بالممارسات اليومية لشلة السكن الرياضية، كانوا لا يفوتون يوما واحدا دون لعب..

لكنه يرى الآن كرة السلة التي لطالما تقاذفوها مصحوبة بالشتائم واللعنات راكنة إلى عامود السلة، وحيدة كأنما تتساءل عن سبب اختفاء أولئك الفتية المتحمسين طيلة الوقت.. أبسبب الحر الشنيع؟

أم لشيء آخر؟

****

سار (رَمَّاح) في الممر الطويل للسكن محاولا التقاط صرخة من هنا أو ضحكة من هناك.. أي شيء..

وجد نفسه يطرق أكبر عدد من الأبواب، ولما جاوبه الصمت المطبق

المريب، واصل الطرق على باقي الأبواب وبقوة أكبر..

وبارتياب أشد!

ترى هل ناموا أم غابوا عن الوعي بسبب الحر الشديد؟

غرفة مشرف السكن موصدة كذلك، لكنها تتمتع بنافذة زجاجية تمكنه من رؤية المكتب الخالي على عروشه.. ترى أين ذهب بحق الله؟

وعندما بلغ باب حجرته راوده شعور غامض مريب بأنه لن يجد (بكري) كذلك! فتح الباب، فاستحال الشك يقينا، لا بد وأنه خرج إلى..

بلغ مسامعه صوت أنين خافت، فوثب على الفراش ليجد بدن شريكه في الغرفة ملقى أرضا بجوار السرير، كان يتنفس بصعوبة، وقد استحالت عيناه بياضا كالممسوسين في أفلام الرعب!

- «(بكري)؟ أجبني يا رجل بحق الله!»

تماسك (رَمَّاح) وهو يلطمه برفق على خديه، وخيل له أن عرقه قد استحال نهرًا جاريا على تقاسيمه، فمسح بكره ما تسنى له مسحه من عرق سال على جبين رفيقه وأرنبة أنفه، ثم نهض مقررا البحث عن وسيلة مساعدة فورية..

«طبيب! يجب أن أجد طبيبا!»

تبادرت تلك الخاطرة السريعة إلى ذهنه المتقد وهو يهرع خارجا، ثم شرع يبحث عن حلول أسرع لإيجاد واحد وبأقرب وقت، فالهاتف معطل، ولا أحد يستجيب لطرقاته الجنونية على الأبواب من الطلبة الذين يمتلك أكثرهم سيارات!

الفصل الخامس

الساعة الآن الخامسة والنصف..

بات (رَمَّاح) يشك فيما يحدث حوله.. طوال بحثه المضني لم يقابل كائنا بشريا واحدًا في السكن بخلاف (بكري)!

حتى ولما هرع للجامعة، كان السكون المريب يعتري المكان، تصور رؤية بعض من الطلبة الخارجين من مبنى الجامعة، أو بعض الدكاترة الأجلاء يجولون في الأروقة، ربما فراشا يمسح البلاط الشطرنجي، أو بستانيا في الحديقة الغناء خارجا.. أي كائن يشعره بأن ثمة حياة مستمرة ولو كانت زقزقة يتيمة لعصفور!

حتى أصوات زقزقة العصافير وأزيز الحشرات وحفيف الأشجار.. تلاشت!

اقتحم معظم القاعات وهو يكاد يختنق من فرط الرطوبة والحر.. اصطدم ببعض المقاعد، مما دعاه إلى رفسها وبأكبر سخط ممكن وهو يصرخ.. في الماضي كان حراس الأمن يهرعون إذا ما حاول أحد الطلبة مجرد البصق، لكن الآن..

«هل مات الجميع؟!»

الكهرباء لا تزال مقطوعة.. المياه في الحمامات لا تزال مقطوعة.. كأنه فصل سينمائي من القيامة الغربية! حيث يتسكع البطل وحيدًا قبل ظهور أول «زومبي» حديث الولادة، ممن باتوا الآن يركضون بجنون في الأفلام الحديثة بعدما كانوا يسيرون ببطء كالزحف في الكلاسيكيات!

وعندما صعد للطابق الثاني متفقدًا القاعات، خيل له أنه قد لمح في آخر الممر ناجيا..

«أم تراه زومبي؟!»

كان يسير بتؤدة.. كل ما أبصره (رَمَّاح) هو سترة حمراء اللون!

هتف تاركا الجدران تردد صدى عقيرته:

- أنت! هل تعلم أين اختفى الجميع؟

الناجي - أو الزومبي- لا زال يسير بتمهل، لم يتمكن (رَمَّاح) من تحديد ملامحه، ولم يكن متحمسا لذلك، إذ شعر أن حرارة المكان قد ازدادت لدرجة لا تصدق!

همس لاهثا:

- رباه! وكأننا داخل فرن! يا صاح! هل أنت سعيدٌ حقا بتلك السترة؟

لا يرد.. لِمَ لا يرد؟!

كان يقترب ببطء كأن الزمن ملك يمينه، و(رَمَّاح) عرقه ينهمر كزخ المطر عندما.. عندما اشتعلت النيران!

****

حقيقة لا مجازا!

اشتعلت النيران في إطارات النوافذ على يسار (رَمَّاح)، وقبل أن يتراجع صارخا من عمق المفاجأة، باغتته مفاجأة أخرى لكن من عيار أثقل..

لقد لمح صاحب السترة الحمراء يضم قبضته ثم يرفعها مشتعلة!

ظل مُحدقا ببلاهة في الموقف الجنوني، ومن ثم هتف:

- يا صاح.. قبضتك تحترق!

ثم تحولت المفاجأة إلى صدمة عندما أطلق صاحب السترة الحمراء طلقة نارية صوبه!

ارتمى أرضا شاعرا بالامتنان لغريزته، فشعر بلفح اللهب فوق رأسه قبل أن يتجاوزه ليصيب الأرض وراءه، وعندما التفت وجد شيئا كالكرة يتأجج لهبا، فرفع ببصره بسرعة تجاه مهاجمه العجيب، ليجده يهيئ طلقة نارية أخرى!

- «بحق ال..»

انطلقت طلقة لهب جديدة، فاندفع (رَمَّاح) بجسده مقتحما باب إحدى القاعات، وكاد أن يفقد توازنه، لكنه استعاده في اللحظة الأخيرة وهو يشهق..

«لا بد وأنه كابوس سخيف!»

نظر للوراء مذعورًا، فأبصر ضوءًا أدرك مصدره على الفور، إن صاحب السترة الحمراء يقترب، وبالتأكيد لن يستطيعا التفاهم!

وبوضوح، سمعه يترنم بعقيرة شجية ذات رخامة عجيبة ساهم صدى الممر الفارغ بنشرها:

الحب.. هو شيء حارق..
وهو يصنع حلقة نارية..
محاط.. برغبة وحشية..
إني أهوي في حلقة نارية..
إني أهوي في حلقة نارية حارقة..
قد ذهبتُ أسفلا، أسفلا، أسفلا..
واللهيب ارتفع عاليا..
وهي تحرق، تحرق، تحرق..
الحلقة النارية!
الحلقة النارية!

كان الوغد يردد بالإنجليزية كلمات أغنية Ring Of Fire للمغني الأسطوري الراحل (جوني كاش).. (رَمَّاح) يعشق (جوني كاش) وبشدة، لكنه وفي تلك اللحظة شعر أن الأغنية أتت من أعماق الجحيم!

ثم بزغ صاحب السترة الحمراء عند الباب ملوحا بقبضة نارية متوهجة، كان يُسدل غطاء رأس أحمر متصل بالسترة على طريقة مطرب «هيب هوب»، فلم تتضح ملامحه..

دلف القاعة باحثا عن أي أثر لضحيته، وعندما لم يجد استخدم عددًا لا بأس به من الطلقات، فاستحال المكان جحيما!

خرج بعدما أتم مهمته..

ومن وراء باب القاعة خرج (رَمَّاح) وهو لا يكاد يصدق أن تلك الخدعة القديمة قد انطلت على مهاجمه..

نظر للمكان الذي تحول إلى غابة مشتعلة ذاهلا، وحين خرج كي يلوذ بالفرار فوجئ بالممر وقد استحال سعيرا بدوره..

شرع يسعل متلفتا يمنة ويسرة، ازداد الدخان كثافة والنيران ضراوة، فجثا على ركبتيه مرغما، إذ خذلتاه..

ثم غطى فمه وأنفه بساعده قبيل أن ينساب وعيه منه، فهوى أرضا كجثة!

الفصل السادس

عندما فتح (رَمَّاح) عينيه، أيقن بأن الله قد كتب له الحياة من جديد..
آخر ما يذكره أنه كاد يختنق من فرط الدخان الكثيف، وقد خيل له أنه أبصر شخصا بملامح مواربة بسترة حمراء ذات غطاء رأس وسط ألسنة لهب مضرمة!
خيل له كذلك أن ذلك الشخص.. كان يقذف النيران من قبضته بلا هوادة!
كما لو كان فردا من أفراد الرجال X !
شعر بآلام يسكن في ساعده، فرفعه ليجده متضررًا من آثار حرق عنيف، وقد امتد الحرق ليطال كفه اليسرى!
لم تكن مخيلة إذاً، ولا مجرد كابوس مروع!
كان مشوشا، ثم بدأ يستعيد إدراكه.. وأثناء ذلك شعر أن المكان المعتم الرطيب الذي يحيط به مألوفا لحدٍ غريب..
هنا انتابه الذعر وقد أدرك أنه يحلم حتما.. يحلم بكابوس مروع!
للمرة الثالثة.. يجد نفسه في السجن المعتم ثقيل الهواء!
ما كان بالأمس لهوًا بالمخيلة أمسى اليوم واقعا كابوسيا مخيفا يكاد بأن يثير صدمة.. لماذا هو هنا؟ مكانه ليس هنا..
هو على يقين من ذلك.. هذه المرة كذلك!
وجد نفسه على الفراش الخشن الوحيد الموجود بداخل تلك الزنزانة،

فانتصب شعر رأسه..

ديجافو! هذا الموقف.. قد تعرض له قبلا، قد شاهده قبلا!

وعندما فتح الباب، ودلف ذلك الفتى مُرغمًا، أدرك (رَمَّاح) لِمَ بدا له الموقف مألوفا، بل إن الزنزانة ذاتها - رغم العتمة- تبدت له مألوفة، وبخاصة الرائحة المقيتة..

لقد كان هنا قبلا!

اتسع بصره بذهول عارم، ولما أبصر الفتى المتبرم يجلس قريبا منه مانحا ظهره للجدار مشقق الطلاء..

- «لا تجلس هناك!»

سدد الفتى نظراته التي بالكاد ترى من جراء العتمة تجاه ذلك الجسد الذي بات يتكلم الآن، وبنبرة تحدٍ واضحة ردَّ عليه:

- سأجلس حيثما يحلو لي!

لا! لا يجب أن يراه وإلا لكانت معضلة حقيقية!

تنفس (رَمَّاح) عميقا، ثم دمدم وقد وجد أخيرا كذبة مناسبة لإبعاد الفتى عنه:

- كما تشاء، لكن دعني أحذرك.. أحيانا لا يدعونني أخرج لدورة المياه، لذا فإنني كثيرا ما أتبول هنا، وتحديدًا في ذات المنطقة التي تجلس أنت عليها!

هنا وثب الفتى من مكانه كجندب مذعور، فضحك (رَمَّاح) ذاهلا.. إنه هو.. بشحمه ولحمه!

تنبه للفتى وقد بدا محنقا لصوت ضحكه، فأسرع يقول مهدئا:

- معذرة، لكنني هنا لوحدي منذ مدة طويلة لذا..

تخفى بالعتمة جيدًا، كما أن ذراعه التي توسدها أخفت نصف ملامحه المخفية أصلا، صنع ذلك حين لاحظ بأن زميله يمعن النظر إليه!

- «هل من مشكلة يا زميل؟»

كذا نطق (رَمَّاح) بعقيرة متحشرجة كي يموه على أذني زميله، لكنه يعلم

تماما أن ذلك الزميل يشك حاليا بأنه قد سمع هذا الصوت من قبل!
سمعه يسأل:
- منذ متى وأنت هنا؟
- كما أخبرتك قبلا، منذ مدة طويلة..
- ولماذا أنت هنا؟
- لا أدري، ربما يتوجب عليّ أن أكون في مكان آخر!
- أتقول بأنك بريء؟
- لم يعد ذلك مهما اليوم، ثم من يدري ؟ لربما أكون كذلك أو لا أكون!
- بإمكانك أن تكون إما صادقا أو كاذبا..
- بالنسبة لمن؟ لنفسي؟ للحكومة؟ لك؟ ما الفارق في كل الأحوال؟
ثم رآه يزفر بحرارة قبيل تساؤله:
- ولماذا أنت هنا؟
- لأني أستحق!
- جميل أن تقرّ بذلك!
- أتوقع الخروج قريبا، فهي فترة تأديبية..
- جميل أن تكون متفائلا..
- لستُ كذلك، لم أكن كذلك يوما، لكنني صادق على الأقل مع نفسي والآخرين..
- إذا كنت صادقا حقا فأنت مظلوم يظلم نفسه باستمرارية..
- وما الفارق؟ ثم أني أقريت باستحقاقي ذلك، إذاً فلست مظلوما..
أخيرا نهض متجها لزاوية جديدة من زوايا السجن بعيدا عن فراش (رَمّاح)، وقبل أن يجثو تساءل بشك:
- هل لبيت نداء الطبيعة هنا أيضا؟
- انتقيتَ بقعة نظيفة هذه المرة، هنيئا لك!

جلس، ثم همس وهو يهرش برفق ما فوق جفنه الأيسر:
- أشعر باحتقار غريب يملأ كياني..
كان (رَمَّاح) يتذكر ذلك السيناريو جيدا!
وجد نفسه يدمدم متعاطفا:
- لنفسك أم للسادة الذين زجوا بك إلى هنا؟
- لا أعلم، لكل شيء ربما.. لكل ما في الدنيا!
- إذاً فأنت على الطريق القويم، تهانينا!
- ماذا عنك أنت؟ تتحدث كالذي لا يملك ما يخسره..
- أصبت، أنا «تنبل» بالمعنى الحرفي للكلمة، لكن ما حكاية الفترة التأديبية؟
- إذا أجبتني عن سبب وجودك هنا أخبرتك..
تفكر (رَمَّاح) قبيل إجابته:
- وضعتُ بعض القرطاسية داخل جيبي في إحدى المكتبات وضُبطت متلبسا!
- إذاً فأنت تستحق أن تكون هنا!
- وهل قلتُ غير ذلك؟
- بالتأكيد! بل وأخذت تتحذلق وتفلسف الأمور..
- وما الذي قلته تحديدا؟
- لا أذكر، مزاجي غير رائق للتذكر..
- أو أني لم أكن أفلسف شيئا، وكنت أنت تتوهم فحسب!
- من الواضح أن السفسطائية العقيمة هي وسيلتك للترويح عن نفسك هنا!
- ربما كنتَ محقا.. سيجارة؟
- إذا تكرمت!
آخخخ!
- معذرة، لم أتوقع أن تقبلها!
- ماذا تعني؟

أجابه (رَمَّاح) متذكرا تدخينه الشره في تلكم الفترات العصيبة:
- لكل سيجارة قيمة هنا، كما لو كانت كل سيجارة عبارة عن قطعة من الروح مستقلة بذاتها.. لم أتوقع أن تكون مدخنا، لذا عرضتُ عليك واحدة مجاملة لا أكثر!
أرجو المعذرة لكن سجائري أهم لدي من روحي ذاتها!
- هنيئا لك بسجائرك.. يا مغفل!
قال الفتى آخر ما قاله بنبرة خفيضة، ثم سكن..
- «فليكن ما يكن..»
- «هل قلتَ شيئا يا زميل؟»
- «لا شأن لك..»
- «وهو كذلك!»
أشعل (رَمَّاح) سيجارة ابتدأ تدخينها، قبيل تذكره كيف كانت حال زميله لما ولج الزنزانة، قد أراد وسيلة ما للتنفيس، كانت أزمة اكتئاب حادة مع عديد من الأفكار السوداء، لذا هو في أمس الحاجة للتنفيس!
هكذا رمى له واحدة في حجره قائلا له:
- كنتُ أمازحك فحسب، هاك علبة الكبريت..
وقذفها له، فالتقطها الفتى بيدٍ واحدة ممتنا.. ذات النوع الذي يدخنه لحسن حظه!
أشعل سيجارته هو الآخر متسائلا:
- متى ستخرج من هنا؟
ردَّ (رَمَّاح) متهكما:
- بعد شهر..
- مبارك إذاً..
- سأسافر في جولة سياحية إلى بلد أوروبي، ذلك أول ما سأصنعه لدى

خروجي من هنا!

- هل تعمل؟

- أملك.. متجرًا للمواد العازلة!

- كيف؟

- عوازل حرارية، كيماويات صناعية، مواد طلاء..

- أقصد ما دُمتَ مقتدرا هكذا فلماذا سرقت القرطاسية؟

- ربما كان السبب داء السرقة! أحيانا أسرق المجلات وقطع الحلوى رغم أن ثمنها في جيبي..

- كان لي صديق قديم يهوى تلك العادة، ولكن لم يحدث أن ضبط وهو يسرق، كان له حظ الشيطان.. أتمنى لك الشفاء العاجل يا صاح!

- تبدو لي طيبا وذلك يثير فضولي حقا، ما الذي صنعته كي يجلبوك بسببه إلى هذا الجُحر؟

- أيتسع صدرك لحكاية؟

كان (رَمَّاح) يعلم سلفا تلك الحكاية، لكنه لم يمانع سماعها مجددًا تسجية للوقت!

- بكل تأكيد..

وأظهر في إيماءاته ونبرة صوته شغف الاطلاع على سر مثير، فابتدأ الفتى السرد واجما:

- أعرف في منطقتنا تاجر خردوات متزوج، إنه رجل طيب متدين حليم المعاملة، ومنزله يبعد عن حانوته مسافة شارع..

لمحتُ شابا يتوقف بسيارته بعيدا عن منزل التاجر، ترجل من السيارة وسار حتى بلغه، وبكل بساطة مدَّ يده كما لو كان يحاول التيقن من أن الباب مفتوح، ولما وجده كذلك عجَّل بالولوج للداخل!

- تريد القول أن زوجة ذاك التاجر..

- كان هذا انطباعي الأول لما رأيته، وقد كان بمحله تماما!

- وذهبت للتاجر في حانوته لاطلاعه على تلك المصيبة؟

- بل اقتربت من منزله أكثر محاولا التيقن من صدق مخيلتي، وإذ بالشاب يخرج إليّ فجأة وكأنه يراقبني عن كثب! سألني بفظاظة عما أريد فسألته عن التاجر، أجابني أنه غير موجود، فسألته عمن يكون هو.. كان وقحا وأحمقا لما ردَّ بأنه شقيقه، وبعصبية هوجاء أمرني بالانصراف وإلا استدعى الشرطة، فأخبرته بأني لن أتزحزح قبل مجيئهم، فقد نجح باستفزازي، فثار معلنا أنه سيطلبهم على هاتفه النقال أمامي..

- وهكذا وصلت المساعدة، أو لنقل بالأحرى مساعدة ذلك الشاب!

- بالضبط! كانوا كلابه الحارسة التي ألقت بي هنا لأنهم يمثلون القانون..

- حكاية جميلة ذات عبرة!

- تلقيتُ عددا من الصفعات والركلات، فرددت عليها بكل ما أوتيت من قوة..

- وهكذا صارت تهمتك جاهزة..

قالها (رَمَّاح) بتهكم تام، ثم قام بإطفاء عقب السيجارة التي أنهاها أخيرًا في راحة كفه اليسرى المبسوطة، ولم يشعر بألم من أي نوع كونها متضررة من الحروق التي نالت منه مع مهاجمه المرعب ذو السترة الحمراء!

قال الفتى ساحبا من سيجارته نفسا آخر تخديرا لأعصابه:

- لطالما بهرتني هذه الحركة، ألا تشعر بألم؟

تأمل (رَمَّاح) راحة يده حيث الأثر الذي خلفه عقب سيجارته، وبوجوم أجاب:

- بتاتا!

وغطى بصره بساعده مريحا ظهره بالكامل على الفراش غير المريح..

- «إن هذه الزنزانة آمنة فعلا!»

****

- «أفق يا صاح!»

استفاق الفتى وهو يشهق، ثم تمتم كالمسلوب:

- أين أنا؟

همس (رَمَّاح) محاولا تهدئته:

- استرخ يا زميل، هذه هي الزنزانة، وأنت هنا لقضاء فترتك التأديبية!

- أجل، أجل..

- كنت تهلوس كمن تخبطه الشيطان من المس، ذكرتَ أمورا مبهمة..

- مثل ماذا؟

- لا أعلم! كنت تستغيث من شخص أو شيء ما يطاردك..

- الآن تذكرت!

- من الواضح أنها ذكرى سيئة..

- الأسوأ على الإطلاق..

- فضفض..

- لشخص مصاب بداء السرقة؟

- لصوت حادثك في عتمة الظلام فأشعرك بالطمأنينة..

- هل هبط الليل؟

- أجل..

- ما هذه الزنزانة المعتمة؟ أليس من المفترض أن تكون هنالك مصابيح للإضاءة هنا؟

- ربما تمر إدارة السجن بمرحلة تقشف.. ما الكابوس الذي رأيته وأثار ذعرك إلى ذلك الحد؟

- دعك من كوابيسي الآن وأخبرني.. معك سيجارة؟

شعر بها في يده، ثم اشتعل عود ثقاب بدد بعض الظلمة، فقرب الفتى السيجارة التي دسها بين شفتيه من الشعلة الضئيلة..

تساءل (رَمَّاح) وهو يلوذ بالعتمة كي لا يتعرفه الفتى:
- هل ترى دائما كوابيس مروعة؟
أجابه بعدما أخذ من النار حاجته:
- أحيانا، لكنني لا أدعها تؤثر فيَّ إلى حد الصراخ الهستيري!
- الصراخ مفيد أحيانا، لا أتحدث عن الصراخ الهستيري! بل صراخ الغضب الذي يخرج كل ما بداخلنا من ألم ومقت..
- وهل أنت طبيب نفساني الآن؟ حسبتك سوف..
باب الزنزانة يُفتح بضوضاء تصم الآذان..
يدخل ذلك العريف.. غليظ المظهر والصوت.. لقد تذكره على الفور!
العريف يزعق:
- تحرك!
نهض الفتى بيد مرفوعة كتلميذ الابتدائية حين يطلب الإذن للذهاب إلى دورة المياه، والعريف يردف بعقيرته الزاعقة:
- «بسرعة! سيادة المقدم يريدك..»
- «أحقا؟ حسبتها زيارة أو إخلاء سبيل!»
- «تستظرف يا صعلوك؟ هلم أمامي!!»
حاول الفتى النظر إلى حيث يقبع (رَمَّاح)، لكن الأخير رفع من عقيرته صائحا:
- حظا موفقا يا (رَمَّاح)!
الفتى يرمقه حائرا بالطبع، محاولا استنتاج كيفية معرفته لاسمه، تذكر (رَمَّاح) تلك التساؤلات التي طافت بباله يوما وتبسم..
والعريف مستغرب بالطبع كون الزنزانة من المفترض أن تكون خاوية إلا من (رَمَّاح) – الأصغر سنا-، ماذا سيحدث يا ترى حين يجد رماحا آخرا أكبر سنا متواجدا هنا؟ بكل تأكيد سيصاب بالعته!
خرجا – (رَمَّاح) الفتي والعريف- وانغلق الباب الثقيل مجددا..

الفصل السابع

عندما فتح عينيه ببطء وتوجس، شعر بثقل خدري نوعا في ساعده، فرفعه ليجده مضمدا بعناية فائقة!

أين هو الآن؟

نظر حوله محاولا تبين الإجابة، فوجد نفسه راقدا على سرير قديم يُصدر أزيزا كلما تحرك، داخل حجرة مشققة الجدران في شقة ما، واستطاع رؤية الناس والشارع من نافذة صغيرة على يساره..

كانت الحجرة مرتبة ونظيفة، لكنها توحي بصعوبة الحالة المادية لأصحاب هذه الشقة..

قال لنفسه متأملا السقف المنذر بسقوطه فوق رأسه:

- هل كان مجرد كابوس سخيف؟ بل هل أنا حاليا في كابوس آخر؟

نهض من السرير بتثاقل، وسار حافي القدمين حتى بلغ الباب..

توقف قليلا محاولا السيطرة على دوار داهمه فجأة، ثم عاود التحرك بعدما هدأ..

سمع صوت جهاز تلفاز مفتوح على محطة أطفال، وحين نظر من فرجة الباب لمح امرأة بالغة البدانة تشاهد بعفوية الرسوم المتحركة، أحيانا تغرق بالضحك، وأحيانا أخرى تصمت وتحدق ساهمة، مما جعله يشك في سلامة قواها العقلية!

ثم هنالك تلك المرأة العجوز شبه الغافية، ترتدي نظارات طبية وعلى صدرها كتاب مفتوح..

وهنا بوغت بالباب يفتح بالكامل، وفوجئ بفتاة قمحية البشرة رشيقة القوام نجلاء العينين ومبعثرة الشعر تقف في مواجهته حاملة صينية عليها طبق حساء ساخن ورغيف خبز!

- «أخيرا أفقت؟ حمدا لله على سلامتك..»

كانت ناحلة إلى حد ما، تضع الحناء على شعرها المجعد بعض الشيء..

- «أين أنا؟»

- «في شقتنا! سعيدة بلقائك أيضا!»

نطقت كلماتها بفتور عجيب، ورغم ذلك واصل أسئلته مضطربا:

- وكيف وصلتُ إلى هنا؟

تأملته بنظرات متفحصة قبيل ردها الواجم:

- ألا تذكر شيئا عن الحريق؟ لقد كدتَ تلق مصرعك لولا قضاء الله ورفيقك الذي أنقذك!

- عن أي حريق ورفيق تتحدثين؟!

- لقد اندلع حريق في البناية المجاورة، ورفيقك داكن البشرة صاحب السترة الزرقاء والشعر الأكرت الطويل أنقذك منه وجلبك إلى هنا!

رفع حاجبيه إليها بنظرة مفعمة بالتساؤلات، لكنها قالت كأنما تحاول تغيير دفة الموضوع:

- هل تأكل وحدك أم تفضل أن أطعمك بنفسي؟

كان يشعر بجوع فعلا، فتناول منها الصينية قائلا بارتباك:

- لا تتعبي نفسك أكثر، سآكل بمفردي..

وأعطاها ظهره عائدا إلى داخل الحجرة، ثم لم يلبث أن توقف مشدوها..

- «سمو.. الأميرة؟!»

لم تبدل من وقفتها أو انفعالاتها.. ظلت عيناها مسبلتين وهي تهمس كالحالمة:

- تذكرتني أخيرا؟

- قد.. قد كبرتِ يا (رَيان)!

قالها مشدوها، فرفعت رأسها متمتمة وهي تتأمله:

- لا أستطيع قول ذات الشيء عنك.. تبدو رائعا!

- صرتِ فاتنة!

- شكرا!

- وأين والدتك؟

- انتقلت إلى جوار ربها قبل ثلاثة أعوام!

تماسك كي لا يجن، فهمس مزدردًا لعابه:

- رحمها الله.. والمرأتان؟ من تكونان؟

- خالتي وجدتي، عندما مرضت والدتي جاءتا للسكنى عندنا..

حنى رأسه بصمت، فانفرجت شفتاها عن بسمة باهتة وهي تردف بتهكم مرير:

- مائة سنة كي تتشرف وتأتي لزيارتنا؟

بدا شاردا وهو يهمس كالدائخ:

- مائة سنة مرة واحدة؟! أوف!

ثم تنبه للموقف المتعسر الحالي الذي يعايشه، فأسرع يقول:

- حياتي كانت صعبة يا (رَيان).. فعلا!

- ماذا عن حياة والدتك؟ ماذا عن حياة (وضاح) شقيقك؟

ثم فتحت عينيها فجأة، وباحتداد قالت:

- ماذا عني أنا؟ ماذا عن انتظاري لك كل تلك السنين؟

- أنتِ لم تصدقي أننا كنا سنتزوج فعلا يا (رَيان)!

قالها بغلظة لأنها أثارت موضوع والدته وشقيقه بتلك الطريقة.. ولكن لحظة..

دمدمت الفتاة بمقلتين اغرورقتا بالدمع:

- أتدري كم من العذاب احتملتُ في سبيل عائلتك؟ أنت تجهل ما قمتُ

به من تضحيات تجاههما..

- لحظة واحدة..

- فتاة مذ كانت في السادسة عشرة من عمرها دأبت على مغادرة الدار كل يوم في السابعة صباحا كي تعمل وتعمل حتى العاشرة ليلا!

تركتُ المدرسة والدروس والصديقات، وصرتُ نادلة في مقهى للانترنت.. صرتُ أصرف على والدتي المريضة العاجزة، وزوجي المريض العاجز عقب وفاة والدتك!

شعر بالأرض تميد به، لكنه تماسك برباطة جأش غير طبيعية.. هي نهاية طبيعية للغاية بالنسبة لوالدته!

تساءل بعينين مهمومتين ودونما اكتراث حقيقي:

- تزوجتِ إذاً؟

صرخت في وجهه وهي تلطم الصينية بين يديه بثورة:

- أجل تزوجت! أتريد معرفة من كان زوجي؟ أتريد معرفته حقا؟!

ثم بصقت في وجهه بغتة، وركضت إلى حجرتها وهي تنتحب بحرقة أليمة!

ظل على صمته وامتقاع وجهه، ونظر إلى المرأتين فوجدهما على حالهما رغم كل المعمعة التي حصلت..

استدار عائدًا إلى سريره، فتمدد عليه مُطلقا لأفكاره وذكرياته العنان..

والعجيب أنه لم يجدها جديدة عليه رغم أنها كانت كذلك!

كان الآن يتذكر كل شيء.. كما لو كان قد وقع فعلا!

****

أخيرا أتى يوم تسليم الأمانة لصاحبها العلي القدير..

كانت ذاكرته مشبعة بذلك الظلام المقبض، ذات الظلام الرائع في قلوب المحبين من الأهل والمعارف، ظلام مروع انبعث عقب سماعه الخبر..

الأم والأخت والصديقة والحبيبة قد رحلت! رحلت كما يرحل أي شخص

تسمع عنه أو تراه!

كيف تأتى له نسيان وجهها المائل للزرقة الباردة؟ كالغارق في سبات ولا أعمق منه، كأنها السكينة وقد واتتها أخيرا بعد كابوس معاناة طويل مع مرض لا يرحم البدن ولا يترفق بالأعضاء..

كيف تأتى له نسيان جبينها الذي لطالما لثمه؟ دفء الحياة سُلب منها برحمة منك يا إلهي، وإن كان قد أنكرها في لحظة وهن بشرية، طلب من الرحيم مغفرته عليها فيما بعد..

البدين النتن سأله وهو يهرش بمزاج متعكر ذقنه ذات الأشواك:

- الاسم؟ العمر؟ مكان الميلاد.. كيف توفيت؟

نظر إلى غراب البين البدين بخواء، وأجاب عن ذلك كله ببرودة أشد من الصقيع، فخط الرجل ذلك كله في دفتره الأسود العملاق الكئيب، ثم سلمه ورقة تصريح الدفن المُصفرة وهو يتجشأ!

تذكر كيف تأمل تلك الورقة المهترئة باسما بسخرية مريرة.. ما أعظم الموت عند الله وما أهونه لدى البشر! قد صار للموت مراجعين وملفات وأختام وتواقيع كسائر المعاملات، الكل يجب أن يحترم النظام، فالنظام لا يفرق بين كبير أو صغير، بين حياة أو موت!

وجاء يوم الدفن الرهيب، فارتدى الجميع السواد بأناقة.. تذكرها من جديد بزي المسرح الساذج أيام المدرسة، لطالما أحبت المرح والفرح والضحك، واليوم هي صامتة صمت القبور الراحلة إليها، محمولة على نعش خشبه مُهترئ، مرفوعة على السواعد والأذرع كالقارب المتهادي وسط أمواج البحر..

أصوات البكاء لا تكاد تهدأ، فالمغفورة لها بإذنه تعالى كانت عزيزة على الكل، بعض الوجوه حملت ملامح الجمود واللامبالاة، أولئك الذين سيصير مدينا لهم بكل شيء لمجرد أنهم قاموا بواجب التعزية، أولئك الذين ضل الإيمان طريقه إلى قلوبهم المُشبعة بحب الدنيا والمال والنساء، وازدراء

الآخرة والقبر، بعضهم من المعارف والبعض الآخر من الأقرباء..
تذكرها عندما كانت تتلو آيات القرآن الكريم بصوت مبحوح من أثر المرض، وتؤكد بعد أن تفرغ بأن رحمة الله واسعة شاملة..
قالت له في ليلة ليلاء:
- ليتني تمكنتُ من السفر والحج إلى بيت الله!
فرد عليها باسما مشجعا:
- إن شاء الله تنهضين بالسلامة ونحج ثلاثتنا معا، أنا وأنتِ و(وضاح) أيضا..
كانت الحفرة كفيه الحوت، تنتظر ابتلاع الحصة المعتادة من قوت الديدان..
أنزلوها برفق، كبر أكثرهم وتشهد، لم يتمكن من النطق مثلهم، شعر أنه لو نطق فسينتحب كالطفل إلى يوم يبعثون..
صعدوا فوق الأرض، وشرع حامل الرفش بمزاولة عمله، أكوام من التراب أهيلت على بدن ووجه العزيزة، التي فاضت روحها للبارئ إلى غير رجعة..
لو كان خالك الأعز (حمزة الأسد) على قيد الحياة..!
شعر بالأكف المقيتة تربت على كتفه طوال الوقت، كان أصدقاؤه يصنعون ذلك معه حين يُهزم الفريق الذي يشجعه في مباراة كرة القدم، أو عندما تظهر نتيجة الامتحان..
- «أحسن الله عزاءك..»
- «عزيزة التي فقدناها..»
- «في جنة الخلد بإذن الله..»
- «فليتغمدها الرحيم برحمته..»
ومن الوجوه يتبين المُخلص من الغادر، المُحب من المنافق، الصادق من الكاذب.. رأى قليلا من تلك الوجوه في دارها أثناء صراعها مع المرض، بارك الله فيهم، فقد كانوا يأتون دائما للسؤال عنها، يزورونها ليشدوا من أزرها، وعندما يلقونه ينصحونه بإسعاد قلبها بالزواج من فتاة ما!

عقب الدفن وأداء صلاة المغرب، وجد ظلمة مقبضة في سكنه تعادل ظلمة القبر في وجدانه..
كانت رائحتها لا تزال عالقة في أنفه ومخيلته، رائحة كان يستنشقها بانتعاش في الماضي كما لو كانت مسكا، واليوم شعر أنها أنفاس شبح حزين لا يقوى على رؤيته، فهو يرتع في عالم الغرائب حيث ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.. مهابة يخشع منها قلب كل مؤمن..
لكن قلبه في تلك اللحظات كان مُشبعا بوهن جعله يتهالك على الأرض، دعا ربه أن ينسيه بسرعة، بأن يرحمه من عذاب الذكريات الخلابة والشوق الجنوني لها..
استفاق من ذكرياته بطريقة مفاجئة، عندما لمح (رَيّان) واقفة على باب حجرته، صمتا لفترة طويلة وهما يتأملان بعضهما بنظرات مفعمة بالشجن والأسى، وفي النهاية نطق هو فقال:
- أعلم أنكِ تزوجتِ بشقيقي (وضاح) عقب وفاة والدتي - رحمها الله- واختفائي الذي طال كثيرا.. كان ذلك عملا بمنتهى النبل!

****

أطرقت برأسها عاجزة عن النطق، فأكمل بمرارة:
- أنا مجرد وغد جبان يا (رَيّان)، وغد جبان لم ينجح في الحياة بتاتا، ولم يتمكن من معالجة الأمور المتعلقة بالموت إطلاقا..
لقد هزني موت والدتي هزا، ولم أتمكن من تصور حال (وضاح) من بعدها، كنتِ ووالدتكِ - رحمها الله- تعتنيان بهما، وأدركت أنكما ستعتنيان بوضاح من بعد وفاة والدته، لذا اكتفيت بإرسال المال لوالدتك كي تتمكن من إعالتكم، ولم أجرؤ على زيارتكم كي لا أنظر في وجه شقيقي الوحيد وأدرك مدى تعاسته، فآلامي لفقدان والدتنا كانت أكثر من كافية.. لم أكن مستعدا لتحمل ألم جديد، فقد علمت بتقرير الأطباء عن حالة (وضاح)،

وأدركت أنه ينوي اللحاق بوالدته..
حتى يوم دفنه لم أحضر لرؤيته في مثواه الأخير، تحملت تكاليف الجنازة ولم ألق بنظرة واحدة على شقيقي الوحيد!
كنت أتظاهر منذ الصغر بالشجاعة والمهابة، كان ذلك قبل اكتشافي مدى جبني!
بقيت على صمتها وإن أفصحت عيناها اللتان تأملتاه بوجل عن مكنونات قلبها.. أدرك أنها لازالت تحبه! شعر بذلك.. ربما تزوجت (وضاح) إكراما له..
كان (وضاح) مُعاقا تعسا أيامه في الحياة تبدت معدودة، ولم يشعر شقيقه الأكبر بغيرة من أي نوع عندما تناهى إليه خبر زفافهما الغريب والمثير، فالجرائد كتبت عن الزفاف بوصفه «طرفة»! الفتاة الجميلة تتزوج من الفتى المعوق لشفقتها عليه، ومحاولتها مساعدته وإعانته على الحياة!
كل ذلك الغث الداعي للقيء جعله يتوارى في الجحر كالحجر، بعيدا عن البشر الذين أثاروا حفيظته أكثر من أي وقت مضى، ربما لأجل ذلك فضل الانغماس في مهمته الأمنية الخطيرة تحت إشراف المقدم (الإدريسي)!
قالت الفتاة أخيرا وعيناها الحوراءان لا تكفان عن رمقه بتلك النظرات التي تثير ألمه:
- كان (وضاح) – رحمه الله- كثير السؤال عن والدته وعنك..
اقتربت منه، فوجدته يهتز بعصبية كذنب حية الأجراس، فهمست قريبة منه بشفتين شعر بدفئهما:
- أتدري ما كانت آخر كلماته؟ لقد تساءل وهو يبكي كطفل: «أين أخي؟»
فجأة شعرت بنفسها تغوص بين ذراعين قويتين، فأجفلت وفتحت جفنيها لتجده ينتحب بحرقة وألم كما لم يفعل من قبل..
ربتت على شعره بترفق وهي تحتويه بحنو، فقد اكتفت بذلك العقاب القاسي الذي أنزلته عليه..

الفصل الثامن

كان يشعر بالحرج من وجوده في شقة الإناث الثلاث..
لكن إحداهن – الجميلة تحديدًا- أصرت على بقائه حتى يسترد كامل عافيته على الأقل.. كان قد استردها مذ أفاق – وكلاهما يعلم ذلك-، لكن بدا من الجلي أن الفتاة لم تبدِ استعدادًا لتقبل رحيله من جديد..
هكذا صار (رَمَّاح) - من دون أن يشعر- رجل البيت، يقوم بمساعدة قاطناته في كل مسألة.. لم تتضايق الجدة من وجوده كثيرا لأنها سرحت في عالمها الخاص مع الصمم، في حين سعدت الخالة المخبولة بوجود رجل بالشقة، فصارت تقتحم عليه الحجرة كلما حاول تبديل ثيابه! وكانت تلك هي مشكلته الوحيدة معها، فيما عدا ذلك كانت تشع طيبة وسذاجة..
في مرة من المرات دلف الشقة ومعه جهاز سمع، فرسم ابتسامة سعادة من القلب على ثغر الجدة الجاف..
صار نجم المكان بلا منازع، وأصر أن تكمل (رَيَان) دراستها، فأجبرها على ترك العمل والالتحاق بالمدرسة من جديد، وتكفل بجميع النفقات من مدخراته التي جلبها من مقطنه القديم حيث وجده على حاله لحسن الحظ، فقرأ السرور في محياها الجميل أخيرا، وشيئا فشيئا بدأت تستعيد وزنها، فازداد بذلك جمالها مع مضي الوقت..
أحيانا يصطحب الخالة المخبولة للعب في الحديقة العامة وسط نظرات

الصغار الساخرة، وأحيانا أخرى يصطحبهن جميعا إلى مناطق كثيرة الخضرة في رحلات للترويح عن النفس والتهام الشواء على الفحم، وبذلك كله جعل لحياتهن مذاقا حلوا مختلفا كل الاختلاف عن التعاسة التي عايشوها في الماضي الأليم..

ويوما بعد يوم ازداد تعلق (رَيَان) به، ولطالما سهرا معا فوق سطح البناية يثرثران حتى مطلع الفجر.. كان يشعر بالأخوة أو الأبوة اتجاهها، وهي تشعر بالهيام تجاهه، وكلاهما يقرأ أفكار الآخر ويخفي ضيقه بها!

ذات ليلة، وبينما هما على سطح البناية يتأملان النجوم في السماء، قال لها واجما:

- غدا أعود لمقطني.. آن الأوان لذلك!

اختلج جفنها وهي تلتفت له، وبعصبية ردت قائلة:

- لا، لستَ بحاجة لذلك!

- بل يجب ذلك يا (رَيَان)، الخطأ كل الخطأ هو ما نقوم بفعله..

- تتحدث وكأننا.. كأننا..

نال منها ارتباكها قبل أن تكمل، فسارع (رَمَّاح) بالقول شاعرا أنه بطل فيلم عربي سخيف ما:

- هذا ما كنتُ أعنيه بالضبط، وآخر ما يتوجب علينا فعله هو جعل ألسنة الناس تلوكنا..

- ألا تبا لهم! لا يملكون سوى الألسنة وعقول الببغاوات الخاوية!

- ولو، أنتِ لا تستحقين سوى كل خير..

- تزوجني إذاً!

- ماذا قلتِ؟!

حدق بوجهها مصطنعا الاستهجان والاندهاش، رغم توقعه أنها ستطالبه بذلك حتما، وكانت عيناها شاخصتين، تنظران للسماء بخواء منتظرة الإجابة التي تتمناها..

هناك جسدان متجاوران على سطح البناية الأخرى، فتى وفتاة يضمان بعضهما ويتبادلان بضع قبلات خاطفة، خائفة بأكثر منها هانئة، فظهر استنكار مبين على وجه (رَمَّاح)، داعيا ربه ألا تكون (رَيَان) قد تنبهت لهما!

- «ما زلتُ بانتظار ردك على مطلبي..»

تلفت لها مهموما قبل رسمه بسمة فاترة على شفتيه، وقال لها بلهجة ذات مرح مصطنع:

- امنحيني مهلة للتفكير!

لكنها لم تبتسم، تبدت في عينيها نظرة أربكته كثيرا، فتمتم بلهجة عقلانية:

- أنتِ تستحقين من هو أفضل يا عزيزتي..

- أنت الوحيد المناسب لي، أنت الأفضل لي! أمعقول أنك لم تدرك ذلك لغاية الآن؟!

تبدى الاستنكار على وجهه جليا، لكنها تابعت ونبرة صوتها تزداد حدة:

- تبا لك! بعد كل الذي قمت به لأجلك تأتي وتتردد كأني أعرض عليك صفقة مشينة؟!

- لسانكِ يقطر شهدًا!

قالها ببرودة مرتكزا بمرفقيه على حاجز سطح البناية الحجري.. كان العاشقان على السطح المقابل قد اكتفيا ونزلا كلٌ إلى حيث يقطن، فتنفس الصعداء، وطفق يتأمل الشارع الصامت بشرود..

اقتربت منه (رَيَان) قائلة وهي تبعد خصلة شعر عن وجهها:

- ما الذي تريده بالضبط يا (رَمَّاح)؟ تريد أن تحظى بي من دون رباط مقدس يجمعنا؟ لك ذلك!

باغتها بصفعة ذات رنين على خدها الأيسر، فحدقت في عينيه الغاضبتين ذاهلة عما يدور حولها، ثم انفجرت باكية كطفلة سرقوا الحلوى منها، وهي تركض وتهبط الدرجات إلى حيث شقتها..

تماما كفيلم عربي سخيف!

شعر (رَمَّاح) براحة نسبية إزاء فعلته، وأخرج سيجارة سارع بإشعالها وتدخينها بنهم..
ومع مرور الوقت شعر بالندم، وازداد أكثر عندما أحس بآلام في كفه التي صفعها بها، فأيقن أن الصفعة قد آذتها حتما، فقرر النزول ومحاولة استرضائها..
فما إن التفت حتى تصلبت عضلاته وشعر رأسه، في حين التقطت أذناه صوتا ذا نبرة مألوفة يقول:
- «افتقدتني يا زول؟»

****

- «(بكري)؟!»
كان يرتدي «تي شيرت» مع سروال «برمودا» يغطي الركبتين، وقد انتعل حذاءً رياضيا وسترة زرقاء اللون.. والأهم أنه بدا على خير ما يرام!
ودمدم (رَمَّاح) مصعوقا محاولا ألا يفقد عقله:
- لكنك هنا.. كيف؟!
ردَّ (بكري) مهموما:
- لا تقل لي أنك ظننت كل ما حدث حلما!
- أنت! كنت تبدو كمن يحتضر في..
وصمت بغتة شاعرا بعقله يكاد يضيع منه، فرحمه (بكري) بأن قال مرتكنا على حاجز سطح البناية الحجري هو الآخر:
- في السكن؟ جميل أنك لا زلت تذكر يا زول! فحسب ما رأيته وخمنته من مراقبتي لك فأنت رائق هنا، تعيش في زمان غير زمانك وبكل طمأنينة كأن كل ما يحدث يبدو عاديا وطبيعيا للغاية.. أخبرني كيف الأوضاع معك؟
قالها بشيء من سخرية، فاحتدت نبرة (رَمَّاح) وهو يجيب:
- على خير ما يرام للمرة الأولى! أشعر ببعض الراحة في حياتي الجديدة هذه..

- لكنك غير مقتنع بها.. كيف اقتنعت يا أحمق وبتلك السرعة؟

ودنا (بكري) حتى تبدت ملامح وجهه على ضوء الكشاف القريب، فلمح (رَمَّاح) حرقا شنيعا في جبهته..

- «(بكري)! رباه! ما الذي..»

قاطعه بوجوم:

- (أمبائيل) الضارب بالنار عثر علينا أخيرا!

- يبدو وأنه خصم شرس! من يكون بحق الله؟!

- إنه مخلوق عنيف ومخيف، لا يعرف سوى لغة إضرام النار.. إنه كارثة حقيقية، وهو لا يستسلم حتى يبلغ غايته.. رباه كم أمقت الحر!

- ألا وهي حرقك، أليس كذلك؟

- وحرقك أنت أيضا! لا تتناس خصمنا المشترك، خصوصا وأنه قد ترك توقيعه الخاص عليك كذلك!

- أمر طريف!

وتنهد (رَمَّاح) قبل أن يسترسل:

- ومن مصلحة أهالي هذه البناية ألا يكون أحدنا داخلها أبدا..

- بدأت تتقن قراءة أفكاري يا زول!

- أرى إذاً أن نخرج الآن..

- ودع جميلتك إذاً..

رمى (رَمَّاح) عقب سيجارته قائلا بلهجة مترددة:

- أفضل ألا أفعل، هلم بنا..

هبطا درجات السلالم معا، وعندما مرا بشقتها توقف..

- «ما الخطب؟»

- «اسبقني أنت وسألحق بك..»

لم يجادل (بكري) صاحبه..

- «لا بأس، لكن لا تتأخر يا زول أرجوك..»

وواصل نزوله السريع والرشيق، في حين طرق (رَمَّاح) الباب عدة مرات بقبضته وطفق ينتظر..

فتح الباب بطريقة مفاجئة، وأطل من فرجته وجه (رَيَان) المليح، متأملة (رَمَّاح) بنظرات مستكينة دونما انفعالات..

أصاب خدها احمرار ملحوظ، فداعبه (رَمَّاح) بأنامله هامسا بأسى وهو يعض شفته السفلى:

- سامحيني يا عزيزتي، سامحيني وإلا مت قهرا!

بدت مستسلمة للمسات أنامله الحانية على خدها الطري، وتحركت شفتاه لطبع قبلة عليه، لولا توقفه لشعوره بالتمادي..

وتحركت شفتا الفتاة باحتجاج لا يمكن سماعه لنبوعه من أعماق قلبها، وبعذوبة وملائكية تمتمت:

- سامحتك من كل قلبي!

- اغفري لي أرجوكِ فإني راحل الليلة..

فتساءلت بعينين مغرورقتين:

- إلى أين؟ ولماذا؟ وإلى متى؟

- ذلك لا يهم، المهم أن لكِ مكانة رفيعة ذات سمو في قلبي، واعلمي بأني لن أنساكِ ما حييت..

همست منتحبة وهي تشيح بوجهها:

- ألن تعود أبدا؟

- علم ذلك عند ربي!

- (رَمَّاح) أرجوك!

- وداعا يا سمو الأميرة!

وعندما رحل، انغرس في تلك الليلة خنجران مكتويان بنار الألم في قلبين.. وفي الوقت ذاته..

الفصل التاسع

بدا (بكري) ساخطا وهو يلطم مقود السيارة التي يقودها عدة مرات، ومن ثم هتف:

- كيف استطعت الاندماج في تلك الحياة وبتلك السرعة العجيبة يا زول؟ ألم تتساءل عما حل بي وبالجامعة؟!

- من أين جلبت هذه السيارة الرديئة؟

- لا شأن لك بالسيارة وأجبني!

تنهد (رَمَّاح) مغمغما بسحنة متجهمة:

- صدقا لا أعلم! فجأة أحسست بمرور سريع لمراحل من حياتي داخل ذهني، كان شيئا حقيقيا، تلمستُ حقيقة وفاة والدتي، تقبلت وفاة شقيقي.. تذكرت ذلك!

- هراء! أنت لم تتذكر شيئا لأن شيئا من ذلك لم يقع بعد!

اشتعل الغضب مع (رَمَّاح) دفعة واحدة، فهتف:

- ليس هراءً! في البداية كنتُ ذاهلا، قابلتُ ذاتي في الزنزانة فحاولتُ قدر الإمكان ألا يتعرف عليّ، ولاحقا..

- ماذا؟

- حسنٌ.. كنت ذاهلا كذلك، ولكن يوما بعد يوم بدا وكأن شيئا ينساب لذاكرتي، كأنني كنتُ ناسيا أو متناسيا وفاة والدتي وزواج شقيقي قبيل

وفاته هو الآخر!

- وفاتهما التي لم تحدث بعد!

- أعلم ذلك، لا حاجة لك بتذكيري كلما سنحت لك الفرصة اللعينة!

رمقه (بكري) بنظرة مبهمة، ثم سأله:

- أمر مثير للاهتمام.. عموما اسمع، أعلم بأن وقع الصدمة كان قاسيا عليك، أنا آسف، ولكن علينا أن نعود!

ارتكن (رَمَّاح) للنافذة وهو يرد متهكما:

- إلى أين؟ إلى حيث تنتظرني أخبار سارة بخصوص والدتي وشقيقتي؟

- لأجل.. مهمتك!

اعتدل (رَمَّاح)، وتأمل (بكري) بريبة مطولة متسائلا:

- مهمتي؟

- تلك المتعلقة بإيجاد مفجر الجامعات يا زول!

- وكيف تعلم بطبيعة مهمتي؟ من أنت حقيقة يا (بكري)؟ بحق الله؟!

رمقه (بكري) بنظرة صامتة دون أن يبتسم هذه المرة..

****

الطقس يزداد برودة، وبصورة غير طبيعية..

تتساقط نتفات ثلجية ضئيلة على الزجاج الأمامي للسيارة، ثم تزداد كميتها لدرجة تضطر (بكري) لتشغيل مساحات السيارة..

يقول محاولا تبين سبيله:

- أنا متممٌ زمني.. (كراينو)!

- أستميحك عذرا؟!

- سأعفيك من المصطلحات والأسماء العجيبة مؤقتا يا زول.. ولكن دعني أسرد عليك بضعة قصص حقيقية تماما لتقريب طبيعتي لذهنك،

فتحملني.. وأرجو كذلك أن تصدقني!

- وهو كذلك..

- أسمعت بشارع «بولد»؟ إنه شارع يقع في ليفربول في بريطانيا، وقد حصد شهرة كبيرة بعدما زعم عديد من الأشخاص أنهم انتقلوا عبر الزمن أثناء سيرهم به، خصوصاً فترة الخمسينيات والستينيات!

- أمر طريف!

- كفَّ عن السخرية يا زول وأنصت.. وفقاً لتقرير صحافي فإن شخصاً سار عبر ذاك الشارع لينتقل عبر الزمن إلى الخمسينيات، وعندما عاد لزمنه الحقيقي تمكن من ذكر أسماء عددٍ من الحوانيت التاريخية بشكل دقيق!

- أي مُطلع على تاريخ الشارع بإمكانه فعل ذلك بيسر تام!

- اشتغلت ميكانيزمات الدفاع لديك؟ حسنٌ.. ربما.. وفي عام 1901 زعمت (آن موبرلي) و(إليانور جوردن) المديرة ومساعدتها لمدرسة هوغو بمدينة أكسفورد، أنهما انزلقتا عبر الزمن عن طريق الصدفة، وذلك أثناء زيارتهما لمنزل صغير بمدينة فيرساي الفرنسية، ليجدا أنفسهما في زمن الثورة الفرنسية! حيث ذكرتا مشاهدة ومحادثة أشخاص في قاعة محاكمة الملكة ماري أنطوانيت، وقد قامت السيدتان بنشر كتاب يحكي مغامراتهم تحت عنوان: An Adventure .. هل قرأته يا زول؟

- لا!

- إذاً لابد وأنك سمعت بقصة العرض الأول لفيلم شارلي شابلن The Circus الذي عرض عام 1928 ، أليس كذلك؟

طقطق (رَمَّاح) بإصبعيه الإبهام والوسطى قائلا:

- أجل! إنه مقطع الفيديو المبهم! ذاك الذي عُرض مؤخرًا على موقع YouTube ، حيث التقطت كاميرا المخرج سيدة مجهولة تضع يدها فوق أذنها وهي تتحدث مع شخص ما رغم عدم وجود أحد بالقرب منها، كما

لو كانت تستخدم هاتفا جوالا مع أنه لم يكن قد تم اختراعه بعد!
- بالضبط! وهو ما قد يشير إلى أنها لا تنتمي للزمن الذي تم تصويرها فيه! مقطع الفيديو ذاك أثار جدلا واسعا، وهو مأخوذ من فيلم ترويجي سبق افتتاح العرض الرسمي لفيلم «السيرك» في تركيا، من بطولة الكوميدي العالمي (شارلي شابلن) في سنة 1928 ، وقد صور في المسرح الصيني في هوليوود، ويُظهر المقطع سيدة تمشي من اليمين نحو اليسار وهي تضع جهازا على أذنها، وقد بدا أنها تجري اتصالا بواسطة هاتف محمول!
والغريب في الأمر أن ذلك سبق اختراع الهاتف المحمول بأكثر من 40 سنة، حيث كانت تلك السيدة تحمله بنفس الطريقة التي نستخدمه في هذه الأيام! فكيف إذاً يمكن للسيدة أن تقوم باستخدام الهاتف المحمول في العشرينيات وأول مكالمة جرت من جهاز هاتف محمول كانت في 3 إبريل من عام 1973 ؟
- لذا كان اللغز محيرًا! لكنك تتكلم عن أول مكالمة رسمية جرت من جهاز محمول لأول مرة في عام 1973، في حين كانت فتاة أميركية قد استخدمته قبل ذلك التاريخ بكثير.. في عام 1938 في ولاية ماساتشوستس!
- كيف يا زول؟!
- كما أقول لك! والفتاة التي استخدمته لا زالت حية إلى الآن! وقد ذكرت بأن مصانع «دوبونت» -حيث عملت في قسم خاص بالاتصالات- كانت تجري تجارب على هواتف لاسلكية، وقد أعطتها و5 نساء أخريات أجهزة نقالة كتجربة لمدة أسبوع!
تنهد (بكري) مدمدما بشيء من عصبية:
- فاتتني للأسف مطالعة هذا الجزء، عموما.. الشخصية المُحيرة بحق هو المدعو (فون هيلتون)، إذ يُعتقد أن جزءاً منه لمصاص دماء!
- كنت أعتبر حديثنا السابق أكثر عقلانية، والآن..

- لكنه يؤكد أنه مسافر عبر الزمن! ودلل على ذلك بوضع صور مشابهة لصورته الحالية منذ عام 1857 بإنكلترا، و1916 بفرنسا، و1945 ببرلين، وصورة لشكله الحالي في أميركا، لكن قصته غير قابلة للتصديق كون الجينات عبر الأجداد تلعب دورًا لا بأس به.. مبسوط يا زول؟

- شكرا! هي الجينات هذه المرة!

- قصة أخرى لصورة فوتوغرافية ملتقطة تظهر شخصا يرتدي نظارة شمسية ماركة «ريبان» وسط حشد يرتدي القبعات والبدلات، ولكن ليس فقط النظارات هي ما تشير إلى أنه من المستقبل، بل يمكن ملاحظة أنه يرتدي قميصا طبع عليه بأسلوبscreen-print وقد حمل كاميرا تصوير حديثة!

- كل شيء جائز ببرامج «الفوتوشوب» هذه الأيام!

- وفي فيلم تعليمي عن كيفية الدفاع المدني من الخمسينيات، يظهر معلم يشير إلى سبورة كتب عليها اسمان لفريقي كرة أميركية «رجبي» هما «الجاينتس» و»الراينجرز»، وإلى جانبهما نتيجة 9 - 0 لصالح فريق «الجاينتس»، وهي نفس النتيجة التي حققها الفريق في بطولة العالم لعام 2010 !!

تبسم (رَمَّاح) رغم دقة الموقف وهو يقول باستهزاء:

- أعتقد أن ذلك قد راقك وبشدة! فلا بد وأنك تعلم سلفا نتيجة لعب الورق! ألديك خبرات سابقة في «فيغاس»؟

تجاهل (بكري) قوله مواصلا السرد بتعنت:

- ثم لدينا المدعو (هاكان نوردكفيست)، الذي كان يصلح حوضه المُسرب للماء في الحمام، عندما زحف عبر أنبوب الصرف ليجد في نهايته شخصاً يشبهه لكن في حوالي السبعين من عمره! وحتى لا يشكك أحد في كلامه قام بتصوير نفسه وهو يحتضن نفسه! وقد أظهر الفيديو شخصين متشابهين

يستعرضان الوشوم المتشابهة لديهما!

أرجح (رَمّاح) سبابته باهتمام قائلا ببصر متسع:

- لقد وقع معي ذات الشيء، قابلت ذاتي ولكن من الماضي، داخل تلك الزنزانة! ولم أحتضنه لحسن الحظ كي لا يُصاب – أو أصاب أنا-بالخبل!

بدا الضيق على (بكري) وهو يقول من بين أسنانه:

- هي غلطتي، فأنا لم أعتد نقل الأشخاص! معي يكون الأمر سلسًا وبسيطا، ولكن معك.. لنقل أنك أولى تجاربي! يا زول

- ألهذا السبب وجدتك على تلك الحال المزرية في السكن؟ وأنا الذي حسبتك وقعت صريع موجة الحر الزائدة!

- هو ما أصابني من جراء نقلك، وقد عانيت الأمرين كي أتمكن من إخراجك من الزنزانة ومشكلة لقاء نظيرك من الماضي، وفي المرة التالية سافرت بك أبعد من اللازم.. (باسكو كوزمان) عالم الآثار المقدوني كان مُنظما للغاية في عملية السفر عبر الزمن، إذ كان يرتدي عدة ساعات في يده! حيث تأخذه واحدة للوراء حتى العصر الحجري والبرونزي، والأخرى للمستقبل، فيما تمكنه ساعة ثالثة من معرفة موقع الذهب الذي كان يبحث عنه!

عليّ أن أتعلم منه أكثر لكي أتحكم بعملية الترحال وبأكبر دقة ممكنة!

- ومنذ متى وأنت تسافر؟

- مدة طويلة..

تنهد (رَمّاح) بشبه ضيق، وهرش شعر رأسه بحدة مدمدما:

- حديث شائق! إذاً ، فأنت مسافر عبر الزمن.. سوداني!

- وهل يتوجب على المسافر عبر الزمن أن يكون أمريكيا أو أوروبيا يا زول؟

واصل (رَمّاح) كلامه متجاهلا رد صديقه:

- وهو ما اكتشفته خلال فترة إقامتي هنا، فما أتيت بجديد! عموما شكرا لدروس التاريخ «المخربطة» التي أتحفتني بها!

- ينبغي لك أن تأخذ الموضوع بجدية أكبر، فحياتك في..

- خطر.. أجل! وحياتك كذلك.. بسبب ذاك الشخص الضارب بالنار، أعتذر إليك.. لكن هذا كثير!

- وأنا كذلك اشتقت إليك! حقا إنك لشخص غريب الأطوار يا زول!

- كلام غريب وطريف حين يصدر عن مسافر عبر الزمن!

- متممٌ زمني.. (كراينو)!

- أجل.. (كراينو)! من أين أتيت بهذه التسمية السخيفة؟

- من..

وتنفس (بكري) بعمق..

لمح (رَمَّاح) نظرة في عينيه دفعته للصمت هو الآخر..

كان في ورطة، ورطة غير طبيعية وبكل تأكيد، مع مسألة الترحال عبر الزمن ومطاردة شخص يقذف النيران لهما.. ليس الأمر بتلك البساطة!

- «هوِّن عليك.. أطلعني على كل شيء.. أعدك بأنني لن أسخر!»

- «يستحسن أن أريك كل شيء!»



الفصل العاشر

استفاق (رَمَّاح) فجأة، فوجد نفسه داخل حجرته وعلى سريره في سكن الجامعة!

هل كان في غيبوبة؟ هذا ليس بنوم عادي، المنبه أخبره بذلك!

لقد بقي نائما لثلاثة أيام بلياليها!

لا بد وأنها كانت غيبوبة!

حين نهض شعر بعظامه تتهشم ببطء ولها كل الحق، شعر بتصلبات مؤلمة في أماكن معينة، فكان عليه تفكيك عضلاته ليسير مجددا بصورة طبيعية، وبينما هو عاكف على فعل ذلك بإنهاك، نظر من خلال النافذة، فوجد الظلام قد حل..

- «(بكري)، أين تختبئ عليك اللعنة؟»

كذا هتف، فباغتته غشاوة سوداء جعلت الأرض تميد به، فكاد توازنه أن يختل لولا إسراعه للاستناد إلى الخزانة بكلتا يديه، ثم أمسك جبهته بثلاث من أصابعه وهو يلهث، شاعرا بظمأ يحرق جوفه..

- «(بكري) أين أنت بحق الله؟»

لكن نبرة صوته المتحشرجة لم تكن بالقوة المطلوبة لشدة ظمئه..

سار مترنحا، لكنه سقط أرضا وقد خارت قواه قبل بلوغه الثلاجة.. شعر كذلك بجوع متوحش يمزق أمعاءه، شعر برغبة في التهام قطيع هائل من

الخرفان المشوية، وشرب أمواج من المياه والمرطبات المنعشة!

كانت التفاصيل التي يراها – أم تراه يتذكرها؟- تعيد لذهنه رسوماته القديمة عندما كان صغيرا.. عينان حمراوان، أنياب بلون الدم الطازج، جسد أسود معتم كالظل يجثم على صدره محاولا افتراسه!

والخال (حمزة الأسد) كان يراقبه عن كثب.. برهبة.. عقب حادثته مع الحنش ظل خاله يراقبه بطريقة غير معتادة، كما لو كان.. خائفا منه!

- «استفق يا زول!»

كان هذا (بكري) وبيده كوب ماء يبلل منه جبينه! فمد يده محاولا انتزاع الكوب من يده، لكن الأخير منعه قائلا بترفق:

- لا يا زول، ليس هذا أوانه!

شعر (رَمَّاح) بوهنه يكاد يفتته، فتمتم بشفتين جافتين:

- أريد الماء..أريد أن.. آكل!

- ليس بعد..

- عليك.. اللعنة!

وتهالك في مكانه عاجزا عن الإتيان بإيماءة، فمسح (بكري) خصلات شعره المتهدلة على جبينه برفق، ثم أخرج عُصابة سوداء اللون وضعها على عيني (رَمَّاح) حاجبا الرؤية عنهما!

تساءل (رَمَّاح) في ضعف محاولا بيأس رفع كف متهالكة:

- ماذا تصنع؟ أهو اختطاف؟!

- صه! لا تتفوه بكلمة.. كن مستعدا!

سمعه يتفوه بلغة عجيبة لم يفهمها على الإطلاق وهو قابض يده الواهنة بقوة، فتساءل مذهولا:

- أي نوع من الشعوذة تمارس؟

- شعوذة الكراينو! والآن اصمت!

ولم يشعر إلا والأرض قد فقدت جاذبيتها! فارتفع جسده في الهواء.. أخرسته المفاجأة، بل جعلته يطبق فمه خوفا!

****

سمع نبرة الزمهرير المهيبة، وشعر بلسعة برده دونما رحمة..

ثم انتهى كل شيء عقب ثوان، وشعر بالبرد القارص يخفت حتى درجة معقولة بالإمكان تحملها، واستراح جسمه على أرض صلبة أخيرا..

أما الأهم من ذلك كله فكان شربة الماء التي تناولها فمه بلهفة وتضرع.. أخيرا الماء! وكذلك الطعام! لقيمات من خبز مغموس في العسل تدس في فمه، فيتناولها راضيا..

وعندما شعر بعافيته تسترد، عمد إلى نزع العصابة عن عينيه، فوجد نفسه في غابة وسط الظلام الذي بدد أكثره ضوء البدر الأبيض الفتان، وقد جلس (بكري) أمامه باسما، ومعه الخبز والماء وقطعة من خلية نحل غارقة بالعسل!

- «أين نحن؟ ما الذي جاء بنا إلى هنا بحق الله؟»

ربت (بكري) على كتفه قائلا:

- اهدأ يا زول، نحن الآن في باكستان، ومقصدنا حيث تقع قرية بتهانكوت!

- وكيف جئنا إلى هنا؟ بالطائرة؟!

- لذلك استغليت نومك لمدة ثلاثة أيام، وهي المدة الكافية لجعل أي بشري مستعدًا للسفر بتلك الطريقة عبر الزمن، وبسلاسة تامة لا تجهدني!

- ماذا تعني؟ كيف وصلنا إلى هنا؟

- لكي أتمكن من جعل شخص آخر يسافر معي بسلاسة عليه الامتناع عن الطعام والشراب لمدة ثلاثة أيام تقريبا، حتى يصير جسمه واهنا وقابلا للانتقال، الجماد يمكن نقله في طرفة عين حتى ولو كان قصرًا، لكن الكائن

الحي بحاجة إلى بعض الوقت!
- يا لقصص العفاريت هذه! أتريد القول أنك تعجز عن نقلي وأنا ببطن ملآن؟ ما هذا السخف؟!
هنا، تعالت أصوات عواء الذئاب! فأسرع (رَمَّاح) يقول مغيراً دفة الموضوع بتوتر لاح في نبرته:
- إذا بتنا الليلة في العراء فستكون الذئاب أولى زبائن هذا «البوفيه» المفتوح! ماذا سنصنع الآن؟
لمس (بكري) حزمة من الحطب كان قد جمعها أثناء نوم (رَمَّاح) بشعلة قداحته بضع مرات، حتى اندلعت بها النيران..
ثم قال بثقة:
- نشعل نارا بالطبع، فالذئاب تخشى النار، كما أن الجو بارد للغاية.. صحيح أن ذلك يروق لي لكني لا أرغب بإصابتك بنزلة برد!
دنا (رَمَّاح) من النار طلبا للدفء وهو يهمس:
- أعلم لِمَ الذئاب تخشى النار؟ لأنها عفاريت متنكرة!
- ليس كلها.. أتعلم؟ هذه الغابة صالحة لحكاية مفزعة من التي كنا نتداولها في السكن مع العمانيين واليمنيين، وبالمناسبة بعض تلك الحكايات حقيقي!
- مثل ماذا؟
- خذ عندك مثلا حكاية الصبيين اللذين خرجا إلى الغابة للعب لعبة الغميضة في هذه البقعة تحديدا..
- دعني أخمن، لقد طالت فترة اختبائهما، أليس كذلك؟
اكتسى وجه (بكري) بظلال مخيفة لما انعكس وهج النار على ملامحه التي أحاطت بها الظلمة من عدة جوانب، وهمس مواصلا السرد:
- لا أحد يعلم ما الذي حدث سوى الصبي الأول، فقد عاد للقرية مع أولى نسائم الفجر وهو ملوث بالدم وقد جن كليا.. كان يصرخ قائلا أن غولا

ذا عين واحدة التهم صديقه، وخرج الأهالي بحثا عن الصبي.. بحثوا في كل شبر من الغابة حتى كَلّوا، وأخيرا أعلنوا أن الغيلان هي التي خطفت الصبي فعلا حتى تأكله!

- (بكري)، بصلاة سيدنا الرسول الكريم، هل هذه الحكاية حقيقية؟

تبسم مجيبا بلامبالاة:

- مجرد حكاية من حكايات الجدات يا زول، من الواضح أنهن يسعدن بإثارة هلع أحفادهن!

- الحقيقة أن جدتي كانت مستعدة لدفع نصف عمرها ثمنا لإرعابي، فقد كنت أسخر دوما من حكاياتها على عكس الصغار الآخرين..

وقرب وجهه وكفيه من النار هامسًا ببصر متسع:

- عندما أصيب شقيقي (وضاح) رحمه الله بالصرع، أرادوا دق الطبول على أذن المسكين أياما بلياليها لولا رفضي الكاسح..

قال (بكري) ساخرًا:

- أي أن العفاريت أرحم من أهلك!

- والدتي - رحمها الله وأطال بقاءها!- لم تكن على علم بذلك، كانت طريحة فراش المرض، وقد كادت أم (رَيَان) تتكفل بالأمر لولاي، فقد كانت الخرافات تملأ رأسها!

صمت (بكري) قليلا، ثم قال متأملا النار المتأججة ببصر شارد:

- هنالك كوخ..

- أين؟

- هناك.. ورائي!

والعجيب أنه لم يرفع بصره عن النار حين قال ذلك، كما لو كان يمتلك عينا إضافية خفية في مؤخر عنقه!

- «من أين ظهر هذا أيضا؟ لقد أضاء أنواره بغتة!»

قالها (رَمّاح) باحثا في جيوبه عن سيجارة فلم يجد، فقال بشيء من سخط:
- أي مجنون يقطن غابة كهذه؟
- من حسن حظنا أنه مجرد مجنون، أليس كذلك يا زول؟
- ماذا لو كان مهجورا؟
- مهجور وأنواره مضاءة؟ يبدو وأنك ممن يؤمنون بالأشباح!
- بالعفاريت وليس الأشباح!
- الخيار لك، المأوى والطعام والعفاريت، أم العراء والذئاب الجائعة؟
- بالأحرى لا خيار لدي!
- حظا موفقا إذاً!
- ماذا؟ ألن تأتي معي؟
- أأنت خائف أيها الخطر الأسود؟ كم هذا مخيب!
- وتعلم بهذه الحكاية كذلك؟ يا لك من..
لكن (رَمّاح) كان خائفا نوعا، على الأقل في سره، فلم يكن مستعدا لإظهار خوفه أمام (بكري)..
نهض من دون كلمة زائدة جاعلا الهدى باتجاه ذلك الكوخ، وسمع صوت (بكري) خلف ظهره:
- حظا موفقا يا زول!
ازدرد لعابه وسار بخطوات حثيثة، وأقسم أن هذه اللحظات - التي أكثر من تخيلها في طفولته- تكاد أن تكون الأكثر مدعاة للرعب..
لِمَ جلبه (بكري) إلى هنا بحق الجحيم؟ يذكر أنه قد قال شيئا عن جعله يرى كل شيء!
كانت دارا بسيطة، وحاول (رَمّاح) تبين أي صوت دال على وجود بشر، وعندما لم يتبين شيئا طرق الباب..
انفتح فجأة وبطريقة وثب لها قلبه، وظهرت عجوز ذات وجه متغضن

داكن كالباذنجانة الفاسدة على عتبته..
- «أنت تائه يا ولدي؟»
قالتها بعربية ذات لكنة من تلك التي يستخدمها الهنود والباكستانيون لتقطيع اللغة العربية كلمة كلمة: «انته فيه تايه يا ولدي؟» فحاول التبسم متبسطا، وردَّ قائلا دون أن يخطر بباله كيفية معرفتها أنه عربي وهو لم يفتح فمه بعد لينطق:
- أنا مجرد عابر سبيل يطمع في قضاء الليلة داخل مكان آمن يا جدة..
أزاحت له الباب الخشبي، فأصدر أزيزا زاد من حدة توتره، وهمست بأريحية أثارت ريبته:
- هلم للداخل، أنت ضيفنا لهذه الليلة!
دخل (رَمَّاح) شاعرا ببعض التوجس من المرأة..
ولكن سرعان ما جحظت عيناه جحوظ دهشة وإعجاب، فقد وقع بصره على كائن بشري أبيض وعذب، ولربما كان من أجمل مخلوقات الله! بنت حواء بارعة الوجه، ذات قد حسن وشعر حريري أسود شديد النعومة، ثيابها تلف قدها كالجورب الذي يلف القدم!
كانت عاكفة على التطريز بأنامل دقيقة ذات أظافر براقة شعر برغبة في تقبيلها بنهم، ولما رفعت بصرها الشفاف عما تقوم به تبسمت هامسة بصوت كاللحن الهادئ:
- أهلا بك!
من طريقة نظراتها وإيماءاتها أدرك بأنها عمياء، فشعر بأسف لا حدود له عليها، وبوجل قال:
- آسف لتطفلي عليكما بهذه الصورة..
- لا عليك، لست أدري كيف تمكنت من الوصول إلينا وسط الذئاب الجائعة!

- يبدو وأنكما تتدبران معيشتكما جيدا في هذه البقعة المعزولة عن الناس وبين الحيوانات المفترسة!

- نحن قويتان، صمدنا طيلة سنين، ومع مرورها ازددنا قوة..

- صلابتكما داعية للإعجاب حقا..

وضعت الجدة أمامه طبق حساء صبته من قدر توهجت نار دافئة أسفله، وبمودة قالت له وهي تناوله رغيف خبز طري:

- كل يا بني فالجوع بادٍ عليك..

- شكرا يا جدة..

كان جائعا بالطبع، وبعد الطعام جلس يثرثر مع الفتاة حتى وقع في حبها، وقبل أن يطلب يدها للزواج سمع جدتها تقول:

- تأخر الوقت يا بني، فراشك معد فاتبعني..

نظر للفتاة وكأنه لم يشبع منها، وبصوت متهدج قال لها:

- تصبحين على خير!

اكتفت بابتسامة مشرقة كادت تفقده صوابه..

وعندما تمدد في الفراش داخل تلك الحجرة المعدة خصيصا له، تفكر كم هما لطيفتان مضيافتان.. وتفكر كم فتاته فاتنة ورائعة!

تقلب في فراشه محاولا النوم لكن دونما جدوى..

ثم تذكر أمرا أثار جزعه، لقد نسي سؤال الغيداء عن اسمها! وبقيت تلك الفكرة ملحة على ذهنه حتى قرر النهوض ومواصلة السهرة المسلية معها، وبالطبع سؤالها عن اسمها..

خرج ليجد أدوات الحياكة في مكانها، والقدر لازالت على النار، لكن أين العجوز وحفيدتها؟

لمح باب حجرة العجوز وحفيدتها مفتوحا، رجح أنها حجرتهما لأنها الثالثة والأخيرة بعد مكان السهر وحجرة نومه.. لم يكن من الصواب أن يطل كي

يتلصص عليهما، لكن جانبا غامضا منه اشتعل بعنف مُلهمًا إياه بفعل ذلك هذه المرة فقط!

كان الفراشان خاليين، والحجرة باردة للغاية على عكس باقي أرجاء الدار الدافئة، وفي خضم حسرته وتساؤلاته عن مكان المرأة والفتاة، استطاع رؤية تلك الحلقة المعدنية في زاوية الحجرة، فاتجه إليها وقام بجذبها لتكشف عن درجات حجرية مؤدية لأسفل!

كانت دعوة للنزول إذا ما كان يملك الجرأة، وقد قبل تلك الدعوة بقلب راجف..

ازداد البرد لدرجة أن البخار خرج مع أنفاسه، ورائحة كالتي يشمها عند الجزارين تملأ الجو، فشعر برغبة في التقيؤ، لكنه تمالك نفسه..

أبصر بابا معدنيا صدئا بصعوبة بسبب الأضواء الخافتة للفوانيس المعلقة، فاقترب منه حتى تبين فرجة أدنى وجهه منها.. ورأى!

****

رأى كابوسا لا يمكن أن يكون حقيقيا! شبان وشابات من مختلف الأعمار قتلى.. وقد علقوا على عقافات صدئة كالذبائح!!

جميع الجثث شبه متعفنة، وقد تم ذبح الضحايا بطرق لم ير (رَمَّاح) أبشع منها في أي فيلم رعب مختل!

قرأ المعوذات حوالي مائة مرة محاولا السيطرة على رعبه، وعندما مر طيف (بكري) بذاكرته لعنه ألف مرة..

قرر الهرب من فوره، ودعا ربه ألا يقابل السفاحتين في طريقه للأعلى، وتناول سكينا متآكلة من فرط الصدأ وجدها من بين عشرات على الأرض للحماية، ثم صعد الدرجات الحجرية بأقصى سرعة مرددًا كالمخبول:

- الغيلان حقيقية! الغيلان حقيقية!

فما إن صار فوق، حتى وجد الفتاة العمياء جالسة على طرف فراشها بانتظاره مبتسمة!

التصق بالجدار مبتلعا ريقه بصعوبة، قبل أن يهتف مخفيا السكين وراء ظهره:

- أين العجوز؟ ما الذي ارتكبتماه؟!

- عما تتحدث؟

- رأيت القبو! رأيت الجثث يا حيزبون!

ابتسمت بسمة ميتة قائلة ببرودة:

- أجل.. اللحم!

ولعقت شفتها السفلى بتلذذ أثار رعب وقرف (رَمَّاح)، ثم استحال تقززه ذهولا لما نهضت وتراجعت حتى التصقت أطرافها بالجدار كالسحلية متأملة إياه بسخرية، ودبت الحياة في شعرها فصار يتموج ببطء، واصطبغت عيناها بلون قرمزي باهت، في حين مدت يدًا ذات مخالب سوداء مقوسة صوبه، وتحشرج صوتها بطريقة مروعة ومنفرة كما لو كانت عقيرة شخص ممسوس!

بدت كغول خارج من رسوماته القديمة أو الحكايات الشعبية الأقدم، وكاد يستسلم لها حين أطلقت صيحة لم يسمع أبشع منها وهي تهاجمه في الهواء، إلا أنه وبآخر لحظة شهر سكينه، وبها وجه أعنف ضربة يمكن تخيلها، لدرجة أنها أطارت رأس المسخ من بين كتفيها رغم رداءة النصل، فتشنجت أصابعها والدم يتطاير من موضع الرأس المبتور بعنف، ثم سقط جسمها أخيرا بلا حراك!

تذكر على الفور ودون إبطاء جدتها فشعر بتوعك في معدته، وفكر بالهرب لولا تذكره أمرا هاما.. لا يمكنه ترك تلك الجزارة على قيد الحياة، لكي تذبح مزيدا من التائهين الأبرياء! عليه فعل شيء حيال ذلك..

- «عليك اللعنة يا (بكري)!»

ترى أين تختبئ العجوز اللعينة ؟ في القبو طبعا وبين الجثث التي تقتات عليها لتصير الحكاية بذلك أرعب!

عاد إلى الحجرة وهبط السلالم من جديد شاهرا سكينه، فوجد نفسه يسبح في الظلام الدامس هذه المرة.. لقد أطفأت الساحرة الفوانيس!

بلغ الباب المعدني، فدفعه بنصل سكينه بحذر، كاتما أنفاسه قبل تنفسه ببطء من فمه كي لا يشم رائحة الأعضاء النتنة، وتقلبت معدته مجددا لدى ملامسته الجثث المعلقة والمتأرجحة ببطء مفزع..

- «يحكى أن..

أن فتى عاش مع والدته في شقة مقبضة لأعوام وأعوام..

جرب كل ما هو حلال كي يكسب قوته وقوت والدته دون فائدة ترجى، وهكذا.. قرر تجربة دروب الحرام!»

كان صوت المرأة العجوز، يتردد بعمق وبصدى عبر الظلام..

- «ومع ثلاثة شبان آخرين شكل عصابة لسرقة المنازل..»

إنها إذاً حكاية من حكايات الشارع المرة، التي تذكر بالواقع دون منح فرصة لتخيل ما هو أفضل، حيث لا يؤمن الأطفال بخيال في عقولهم، بل بواقع عليهم التأقلم معه باكرا كي لا يجتاحهم في غفلة منهم!

- «كان قاسيا مع والدته التي عاملته بكل لطف وعطف وحنان..

دائما ما كان يصرخ في وجهها.. ويتهمها بالخنوع والغباء..

وهي تحتمل لأنها ببساطة كل أم.. تحبه!»

لمح (رَمَّاح) وسط الظلام نورا بزغ فجأة، فتحرك اتجاهه ببطء وحذر وخوف..

- «صار للفتى رفاق سوء كثر دلوه على طريق المخدرات.. فابتدأ معهم ترويجها.. ثم إدمانها.. لقد كان يهوي في قعر الجحيم كل يوم أكثر فأكثر.. وذات يوم.. دخلت الأم حجرته ظهرا لإيقاظه كالعادة.. ففتحت الستائر

قائلة بحنو: صباح الخير يا بني..
نهض الفتى العاق عن السرير مشوشا كعادته.. ثم لم يلبث أن ثار بجنون.. وكال لوالدته أقذع الشتائم والصفعات على خدها.. ثم خرج من الشقة وهو يرغي ويزبد..
والتعسة تبكي بحرقة..
أما الفتى فتمشى في الشارع دون ندم أو مبالاة.. والتحق برفاقه حيث بقوا يتسكعون حتى منتصف الليلة الماطرة..
وعندما وجد نفسه وحيدا في طريق خلا من بشر.. ظهر له ذلك الرجل من عدم.. كان يحمل مظلة سوداء تقيه غزارة المطر..»
لمحها (رَمَّاح) أخيرا.. كانت متربعة أرضا وقد وضعت رأس حفيدتها المبتور في حجرها، حيث أخذت تداعب خصلات شعره الأسود الطويل بمخالبها السوداء المعقوفة!
متى وكيف تحصلت على الرأس الذي بتره فوق؟!
- «أخبره الغريب حامل المظلة أنه رجل المطر! رجل الفرص! وصديقه الوحيد الراغب بمساعدته.. سيجعله غنيا كما كان يحلم وأكثر.. سيجعل الأموال تنهمر عليه كزخ المطر! لدرجة رميها فوق الرؤوس دونما مبالاة! فأسرع الفتى يخبره بأنه سيصير له عبدًا إن انتشله من دوامة الفقر التي لا ترحم..
والثروة طريقها عسير.. وعليه بذل كل التضحيات في سبيلها.. إلى حد القتل!
ولم يتردد الفتى بل وافق متحمسا.. ولكن يقتل من؟»
وتيبس (رَمَّاح) في مكانه ويده القابضة على السكين ترتجف لاشعوريا..
- «ائتني بقلب أمك يا فتى ولك الجواهر والدرر!»
كان صوت الشر ينطق بحنو، رقة مريعة اكتست بها نبرة العجوز التي تخاطب رأس حفيدتها المقطوع..

- «اتهم الفتى الغريب حامل المظلة بالجنون.. لكن رجل المطر تمكن من إقناع الفتى بمنطق الثروة الطائلة.. وبأن ثمة فرصة واحدة فقط في عمر الإنسان.. إذا ذهبت أدراج الرياح فلن ترجع ثانية!

ومدَّ رجل المطر الرهيب يده بالسكين للفتى الذي حدق بها مذعورا.. ثم رحل تاركا إياه بعقل متخبط بين الغيوم السود وأسفل المطر المنهمر كالسيول.. عاد للشقة ليجد والدته ساهرة تستقبله ببسمة حانية قائلة:

ولدي حبيبي.. هل أصابك من ضرر؟»

سقطت السكين من يد (رَمَّاح)، ولطم جبهته بكفه عدة مرات وهو لا يكاد يكف عن الارتجاف، ثم قبض شعر رأسه، وطفق يعتصره ودموع القهر تحتشد في مقلتيه، ضاغطا أسنانه ببعض مراقبا الساحرة بكراهية لا حدود لها..

- «بعدما قام بفعلته.. وضع قلب والدته في كيس ورقي.. ثم أسرع إلى حيث التقى رجل المطر سابقا.. لم يكن موجودا.. فجلس الفتى ينتظره بقلق وخوف..

حركة منبعثة من الكيس الورقي جعلته يجفل ويلق به أرضا في ذعر.. فتدحرج القلب خارجه.. اقترب الفتى من القلب ببطء.. فكاد قلبه هو أن يتوقف حين وجد قطعة اللحم تلك لا تزال تنبض! وشاب شعر رأسه رعبا حين صدر عن القلب الذي يدق بانتظام صوت يقول بحنان:

ولدي حبيبي.. هل أصابك من ضرر؟

وانهار الفتى تماما حين ظل الصوت يصدر عن القلب كشريط مسجل يدور دون توقف..

وفي أرجاء المكان صدرت ضحكة مخيفة.. ضحكات الشيطان بذاته الجهنمية!»

رأى (رَمَّاح) - بمقلتين تذرفان الدمع- الساحرة وهي ترفع رأس حفيدتها

على ضوء فانوسها الوحيد.. وتشرع بالتهامه ابتداءً من اللسان!
جن جنونه – من الغضب-، والتقط سكينه من على الأرض قبل انقضاضه عليها صارخا:
- عليكِ اللعنة! عودي للجحيم الذي أتيتِ منه!!
عاجلته المرأة بضربة مستخدمة رأس حفيدتها طرحته أرضا فاقدا النطق والحركة، ثم ألقت بالرأس جانبا قبل اقترابها منه بشدقين ملطخين بالدم..
لم يشعر بالهلع عندما كشرت عن أنيابها الملوثة، بل بالحنق!
نهض متجاهلا آلامه النفسية والجسدية، وبذلك تنبه لحبل غليظ قديم ملقى بإهمال قريبا منه، فالتقطه وفكرة ما تتفتق في ذهنه، وسرعان ما انطلق مسرعا إلى خارج القبو وزمجرة الساحرة تلاحقه..
خرج من الدار الجهنمية، وبسرعة قام بتسلقها حتى استقر فوق السقف..
هناك قام بصنع حلقة من الحبل وبصره يتفقد الأشجار القريبة حتى وجد واحدة مناسبة، عندها أطل برأسه من فوق مراقبا الباب الذي تركه مواربا كهر يراقب كوة جرذ..
فجأة، انخلع الباب بعنف من مكانه، وبرزت الغولة العجوز وهي تصرخ، فقام بإلقاء الحلقة المعقودة حول عنقها، كما لو كان راعي بقر يحاول الإمساك بثور هائج!
ورمى بنفسه لتنطبق الحلقة بإحكام، وقبل محاولتها تمزيق الحبل بمخالبها كان قد قفز متشبثا بالحبل من فوق إحدى الأشجار، فانطلق جسم المرأة لفوق كالصاروخ، وتعلق بالهواء لدى استقرار قدميه أرضا.. وربط طرف الحبل الذي معه إلى جذع الشجرة ذاتها وهو يصيح شامتا:
- كيف هو شعورك وأنتِ معلقة كالذبيحة مثل سائر ضحاياكِ يا شمطاء؟
ظل صوتها يتحشرج وكفاها متشنجان حتى تهدلا إلى جنبيها، وكفت عن المقاومة للأبد..

وسقط (رَمَّاح) أسفل الشجرة وهو ينشج ويضحك في آن واحد، لم يصدق أنه تمكن لوحده من الانتصار على مخلوق مروع كالذي يتأرجح مشنوقا فوقه..!

****

- «عمل رائع! برافو!»

سمع (رَمَّاح) صوت (بكري)، لكنه لم ينظر إليه، بل بقي بموضعه لاهثا وهو يمسح دموعه..

- «هنيئا لك يا زول! فقد تمكنت من قتل سعلاة بمفردك..»

- «سعلاة؟»

- « أنثى غول، وهي الأشرس في عالمهم!»

- «جيد..»

أخيرا نهض (رَمَّاح) متمالكا نفسه إلى حدٍ ما، فنفض الغبار عن ثيابه و(بكري) يقترب منه قائلا:

- كنت متأكدا من هلاكك إذا ما أردت الصدق، لكنك فاجأتني تماما هذه المرة، لقد..

عاجله (رَمَّاح) بلكمة ماحقة ومباغتة، لكن (بكري) تلقفها بيسر في راحة يده متسائلا بابتسامة مريبة:

- ما الذي تفعله يا زول؟ هذه مضيعة للوقت!

سال اللعاب من شدقي (رَمَّاح) وهو يصرخ بغضب:

- إليك عني!! سأعود إلى مسكني وأتجاهل أمر لهوك المنحرف!

رد (بكري) بصوت فاتر:

- إذاً فما أقوم به لا يعدو مجرد لهو في نظرك!

- لا يهمني ذلك، لا شيء يهم الآن..

- لا أحسبك تنسحب الآن..

- مم بحق الجحيم؟ اصطياد الغيلان؟!
- الموضوع أكبر من مجرد..
- سئمت كل هذا الجنون، أعدني إلى سكن الجامعة حالا لو تكرمت..
بقي (بكري) مطرقا برهة، ثم تأمل جثة الساحرة المشنوقة التي تؤرجحها الرياح ببطء مخيف، وعاود النظر إلى الدار القديمة قائلا:
- يقال إنها الدار التي أقامها الإمام (أبو الأعلى المودودي)، الرجل الذي دافع عن الديموقراطية الإسلامية بكل جرأة وشجاعة، فاتهموه بأنه فيلسوف إرهاب! (المودودي) تحدث عن رسالة الدين الإسلامي الواجبة قائلا: «إن حياتي ومماتي وقف على هذا الهدف النبيل، وسوف أسير قدما حتى لو لم يتقدم معي أحد، وسوف أسير وحيدا إذا لم يرافقني أحد، ولو اتحدت الدنيا وخالفتني فلن أخشى خوض المعركة وحيدا منفردا..»
تساءل (رَمَّاح) بعد طول صمت:
- لماذا احتلت الغيلان داره بتلك الصورة الشنيعة؟
- الشيطان يكره بجنون أولئك الذين وهبوا أنفسهم لله.. كانت الدار تذكر الناس هنا عقب مجيء الكابوس بالرعب والموت، والآن وبفضلك سيعودون لتذكر كفاح وعزيمة (المودودي)!
ودنا (بكري) من جثة العجوز، فقبض على قدميها المتشققين بكلتا يديه ليوقف أرجحة جسدها بأسره، وبكلمات عجيبة لم يفهم منها (رَمَّاح) حرفا واحدا راح يخاطب الجثة!
- «ماذا تصنع؟»
وانعقد حاجباه لما رأى الأصابع الطويلة ذات المخالب تتحرك، ثم استفاقت الساحرة ونظرت باتجاهه! نظرات خاوية، كانت تحدق للاشيء، وعيناها شفافتان باردتان، وتمتمت شفتاها كلمات بذات اللغة قبل أن تهمد عندما تركها (بكري)..

صاح (رَمَّاح) بعصبية مشيرا لها:

- ألم تمت الشمطاء بعد؟!

- ليس بعد، إنها فقط تعاني شر الهزيمة، ولن تتحرك قبل أن تتحرر على يدي بشري من حبل المشنقة الذي ألحق بها هزيمة نكراء!

- لن نتركها معلقة هكذا إذاً..

- بالطبع لا، سندفنها، وبذلك نضمن الخلاص من الشر، إلا إذا قام أحدهم بنبش قبرها!

- علينا إذاً صب الخرسانة على قبرها!

- وهو الشيء الذي لا نملكه هنا حاليا! فلنكتفِ بدفنها يا زول..

- ثمة جثث كثر لضحاياها الأبرياء في القبو..

- سنقوم بدفنها كلها كذلك!

الفصل الحادي عشر

- «إنها تثلج!»

كذا قال (رَمَّاح) مستندا على الرفش الذي أتوا به من الكوخ، كان يلهث بانتشاء لانتهائه من عملية الدفن المقيتة..

نظر (بكري) للسماء، ثم تنفس بعمق هامسا:

- يا له من جو عذب!

- أرحم من الحر وبكل تأكيد!

- أتحب البرد يا (رَمَّاح)؟

- أعشقه! لا أطيق الحر!

- لذا أحببتك لدرجة الصداقة!

تبسم (رَمَّاح) متظاهرا بالفهم وهو غير فاهم لشيء، في حين استرسل (بكري) مهموما:

- لفترة طويلة للغاية تنقلت وحيدا عبر الأزمنة، نادرا ما كنت أتدخل في التفاصيل، وإذا تدخلت ففي أصغر الأمور كي لا أخاطر بإحداث فوراق مدمرة.. كان ذلك جزءا من الصفقة!

- صفقة؟

- وسم الدم! اتفاق شبيه بصفقة تقاطع الطرق! لكنها تدور في الدهاليز السرية، هم يفضلون الشباب، خصوصا لو كانوا متعلمين أو يمتلكون شيئا فريدا، هبة إلهية ما كحل العقد الرياضية أو الأدب أو الاختراعات أو

الاكتشافات أو الفن من رسم وموسيقا وتمثيل.، الجماعة السرية أهدتني سرا التزمتُ به لوهلة.. إذا لم تتحمس لما ينادون به من فلسفة تنويرية وعقلانية مناضلة لأجل حرية التعبير المزعومة ضد التسلط والتحيز فستتحمس لما يعرضونه عليك من معرفة أو قوة، لديهم مغريات لا تحلم بها ولن تصدقها ما لم تشهدها بنفسك! وما إن يحين ميعاد دفع الثمن حتى تتمرد بيأس لدى معرفته لأنهم الأقوى ولن يغفروا لك خيانتهم، المسألة ليست مجرد بيع روحك فحسب! بل أن تصير كذلك عبدا لهم طيلة حياتك، يسيطرون عليك مقابل المعرفة، مقابل المال والشهرة، وعندما تحين النهاية، ستتأكد من تلوث روحك، وستضمن مقعدك في الجحيم!

لذا يمتلكون عناصر جاسوسية على سائر الأعضاء، الكل تتم مراقبته، الأعضاء الحاليين والمرشحين، فأعينهم في كل مكان!

اللجم لسان (رَمّاح) ولم يدر بما ينطق، فحدجه (بكري) بنظرة ضاحكة:

- إنقاذك من (أمبائيل) الضارب بالنار قد غير تاريخا بشريا بأسره! هو في أعقابي مذ تمردت وهربت، فهو كراينو هو الآخر! لكنه ينفذ أوامرهم، حضوره يحول النهار إلى جحيم، فلا أتمكن من دحره إلا ليلا، حين يضعف وأزداد أنا قوة!

كان من المفترض أن تكون عملية اغتيالي بالمقام الأول، ثم تحولت لاغتيالنا معا! وأنا قمت بإفشالها، وبذلك سقط مخطط من مخططاتهم الجهنمية وتحتم عليهم استخدام الوسائل الأخرى، إذ سأهرب بعيدا عبر الزمن وسيعاود (أمبائيل) مطاردته المحمومة لي!

- حسنا يا (بكري)، قد بدأت تخيفني حقا.. عمن تتحدث بحق الجحيم؟!

- أتعلم ما كانوا يطلقون علينا؟ تسمية الكراينو لم تأتِ منهم على فكرة.. كانوا يطلقون علينا ملائكة! تطير بكل اتجاه، وتعرف أحوال المستقبل باستراق السمع لما تتناقله أخبار السماء!

- أنت الآن تتحدث عن الشياطين التي تضرب بالشهب!

- بالضبط! نحن الذين يلعبون الحيل المنحرفة! والهدف بناء نظام عالمي جديد، خال من الأديان ويدعي الفكر المتحرر التام! يزعمون بان الروحانية ثانوية، كما أن الناس ليسوا قادرين على حكم أنفسهم بأنفسهم، لأجل ذلك يجب تربية الشعوب على الحرية والاستقلالية، ويبدأ ذلك من فهمهم للتاريخ، التاريخ هو الأهم!

في التاريخ سافرتُ بعيدا بعيدا، فأطلق عليّ اسما تلموديا، أسموني «(جوركيمو) أمير البرد»!

لستُ ملاكا! ولا (أمبائيل) الضارب بالنار، نحن بشر عقدنا صفقة وسم الدم لأهداف أنانية! فاعتبرنا التاريخ ملائكة! نعمل لصالح مؤسسة ذات منافع مادية وتحكمية، واعتقدنا الناس ملائكة! هل تصدقني لو أخبرتك أن التلمود قد روى قصصا عني؟ ليس كبكري السوداني طبعا، بل كأمير البرد (جوركيمو)!

(النمرود) الذي حاول إحراق سيدنا (إبراهيم) عليه السلام! في قصص التلمود حاول سيدنا (جبريل) الهبوط للأرض كي ينقذه، وطلب الإذن من الله بقوله: «رب العالم! أنا سوف أنزل إلى الأرض، وأبرد النار وأنقذ الرجل الصالح من كور النار..»، لكن الله أجابه: «أنا الواحد في عالمي، وهو الواحد في عالمه، إنه من واجب الواحد أن ينقذ الواحد الآخر..»!

وأنقذ الله إبراهيم من الموت حرقا، لكنه منح (جبريل) إمكانية إنقاذ ثلاثة من الخلق، وقد كانوا فيما بعد ثلاثة من الحاخامات ألقاهم (نبوخذ نصر) في أتون اللهب، ويدعون (حنانياه) و(أزارياه) و(ميشائيل)..

هنا يأتِ دوري، فأظهر في الصورة بصفتي أميرا للبرد، تلك قدرة من قدراتي التي وقعت لأجلها الصفقة، فأنا أحب البرد! وبالطبع لن تبلغ تلك العقول في تلك الأيام مرتبة المعرفة العظمى بأسرار السفر عبر الزمن! في قصصهم أطلب من (جبريل) إخماد أتون اللهب كي أنقذ الحاخامات الثلاثة، كنتُ متواجدا في تلك الحقبة، لكني لم أحاول فعل شيء سوى المعرفة التاريخية،

أظهرت قدراتي فاستغلوها لصالح تلمودهم كالعادة، وفي القصة أن (جبريل) - شخصيا- قد ردَّ عليّ بقوله: «إنك أمير البرد وستخمد النار، لكني أنا سأخمد النار من الداخل وأشعلها من الخارج، سأقوم بمعجزة داخل معجزة!»

وهكذا تنقذ قصص التلمود حياة الحاخامات بذات معجزة سيدنا (إبراهيم)!

الطريف كذلك أنهم وصفوني ببياض البشرة!

وحتى (أمبائيل) الضارب بالنار، أطلق عليه كذلك بسبب اشتهاره بذلك الاسم من قصصهم التي رويت عنه، منها انه قد ضرب رئيس الملائكة (ميتاترون) بالنيران!

****

بدا (رَمَّاح) شاحب الوجه لحد ما..

تمنى سيجارة، ثم بلع ريقه بضع مرات قبيل تساؤله بنبرة مبحوحة:

- مع من كانت صفقتك؟

- مع القائد الآمر!

- ومن يكون؟

- القائد على هذه الأرض والأرض الخفية التي لا نراها.. هم كانوا وساطة الاتفاق، وسم الدم، هذا ما يطلقونه على الاتفاق، وهو جزء يسير مما يعرضونه لأنهم لن يشاطروك سائر أسرارهم بكل تأكيد.. لديهم سيطرة مطلقة على الحكومة والاقتصاد العالمي وشتى وسائل الإعلام من أخبار وترفيه وخلاف ذلك، يمتلكون مفاتيح أهم الألغاز التي لطالما حيرتنا، يمتلكون سيطرة تامة على العقول ولا يحبذون الأديان أو الترابط الأسري، هم صناع الطوائف الحاليين والفُرقة والمنازعات السياسية، وقد أشعلوا حروبا لا حصر لها، وسيستمرون في ذلك لحين إتمام سائر مخططاتهم!

هم أعطوني القوة وأعطيتهم روحي، ومنذ ذلك اليوم وأنا ملعون كسائر الشياطين!

وضحك، فشعر (رَمّاح) برهبة حقيقية من الاعترافات المذهلة التي ينصت لها حاليا..

حدجه (بكري) بنظرة طويلة، ثم تبسم قائلا له وهو ينبش في جيوبه:

- لكن كل شيء تغير مذ تعرفته.. هو من أطلق عليّ مصطلح كراينو، وقد أحببته جدا! قد كان مدعاة للثقة، صديق طيب، معرفته هائلة كأضخم موسوعة وحذره أريب كأمكر ثعلب، لذا لم يتمكنوا منه لحسن حظ أولئك الذين انشقوا، فلدى سماعهم بأسطورته يباشرون بحثهم المضني عنه، قلائل ممن يعثرون عليه، ومن يفعل – مثلي- فهو بحق إنسان محظوظ!

- هو؟ من؟

- مخلصي الروحاني ومعتقي من العبودية! من أطلعني على الحقيقة وما يتوجب عليّ فعله بالضبط بشأنها.. هاك!

ناوله بطاقة بلاستيكية مغلفة بغلاف مسود عليه نقش فضي لمثلث مقلوب مشطوب بعلامة X قرمزية اللون، وبجدية قال له:

- والآن تذكر جيدا يا زول، فعقب الليلة هذا فراق بيننا! سأعيدك وأختفي من حياتك ولن تراني مجددا، لذا أرجوك تذكر.. حين يحين الوقت، في هذا التاريخ 2013/8/13 ، افتح البطاقة وزر عنوان صاحبها، ولن تندم، سيساعدك حتما، هو يساعد الكل دونما استثناء.. هل فهمت؟

- لم أفهم!

- بل فهمت يا زول.. ورغم ما رأيته من أهوال مستقبلية بالنسبة لك ولمصيرك الأسود، أجزم أنك ستبلي حسنا بما يكفي، وبمساعدة من هذا الشخص لربما تمكنت من فعل شيء لدرء ما هو قادم!

- وما هو القادم بحق الله؟!

- هذا ما يتوجب عليك معرفته والتصرف بشأنه.. آآآي!

الفصل الثاني عشر

استفاق (رَمَّاح) فجأة، فوجد نفسه داخل حجرته وعلى سريره في سكن الجامعة! وفي هذه المرة لم يتزحزح من مكانه..

كان يعلم مكان علبة السجائر والقداحة، على الكومودينو بجواره، تناولهما من دون النظر، وألقم فمه سيجارة أشعلها بنظرات ساهمة..

«ماذا أصنع هنا بحق الله؟!

حقيقة.. لا أعلم..

إن الطقس الآن.. بارد! بارد لحد الإنعاش.. التكييف عاد يعمل أخيرا!»

كذا تفكر.. عاد كل شيء لطبيعته، وتلاشى (بكري) من حياته!

إذاً.. ماذا يصنع الآن؟

****

رحل (بكري) المزعج أخيرا!

رحل تاركا لي أحجية بغيضة، لكنها وضعتني على بداية الدرب الصحيح لتحرياتي!

مفجر الجامعات ذاك! (بكري) لم يذكره بل ذكر شيئا عن مهمتي، لابد وأن من تحدث عنهم هم المعنيين بتلكم التحريات التي أتواجد هنا لأجلها!

منظمة سرية! وكم هائل من نظريات المؤامرة، هذا الجو يناسب الجامعة جدا.. فكما المنظمة لدى الجامعة آلية معينة لقبول الأعضاء الجدد، أو الطلبة الجدد! فعند التحاق عضو أو طالب جديد يقول له معلمه أو

دكتوره إن الهدف الرئيسي هو تطوير شخصيته الأخلاقية ومبادئه الإنسانية، ومساعدة الناس في العثور على مكانهم المناسب في المجتمع وفي العالم! يقوم هذا العضو أو الطالب المبتدئ والساذج بأداء قسم سري أو علني للمحافظة على السرية التامة للعمل، قسم الاجتهاد والتفاني والإخلاص، قسم أبقراط الطبي أو المحامي لموكله أو الطبيب النفسي لمريضه.. تماما كما الفرد لأسرار منظمته، وأن يقدم مصلحة المنظمة أو المجتمع على مصالحه الشخصية.. ثم عليه أن يقدم وصفاً دقيقاً ومفصلاً عن عائلته، وعن أصدقائه، عن مهنته، وماهية الكتب التي يطالعها، وأسماء أعدائه وأسباب الخلافات التي وقعت بينه وبينهم، كما لو كان محضر شرطة أو ملفا من ملفات أمن الدولة، ما هي صفاته وهواياته كما السيرة الذاتية، وأسماء الأبوين والجدين والحالة الاجتماعية وسائر الأرقام الهاتفية والعنوان وصندوق البريد كما الجنسية وإملاء استمارات تجديدها أو تجديد الإقامة!

وكما المنظمة، فإن الجامعة قد قطعت عهدا لخدمة الجنس البشري عن طريق تخريج دفعات الطلبة بدراسات موسعة ومتخصصة.. وأحيانا يقوم الأعضاء الطلبة بإبرام الوعود بمساعدة بعضهم البعض في نفس المنطقة التي يتواجدون فيها، السكن للاستذكار، الوظائف المستقبلية بما في ذلك المساعدة في الحصول على طلبات السفر والهجرة تحت مسمى زمالة أو صداقة أو شراكة.. أشياء شاعرية لعينة شبيهة بالأصدقاء الذين يتواعدون، فإذا ما نجح أحدهم فلينتشل الآخرين معه!

ملحوظة:

«بما أن التاريخ الذي وضعه (بكري) لي آتٍ عقب سنة فسأتماسك.. لن أفتح البطاقة لأطلع على محتواها، إذ من الحكمة عدم مجادلة أو معارضة مسافر زمني.. فهو حتما يعلم ما يتحدث عنه بالضبط!»

ملاحظاتي عن الكراينو وأمبائيل وجوركيمو

رَمَّاح ال..

انفتح الباب بغتة مقاطعا خواطره الورقية..

وظهر على عتبته كهل أصلع، يرافقه شاب طفولي الوسامة غزير الشعر، يرتدي هنداما غير مكوي ويحمل حقيبة ضخمة!

قال الأصلع الكهل مزيحا الطريق للفتى كي يلج:

- غرفة (13)؟

لم يرد (رَمَّاح) وهو يضع القلم جانبا، فطالعه الكهل بنظرات متفحصة قائلا بحروف مضغوطة رتيبة:

- أتيتُ لرؤية زميل ابني والتأكد من أخلاقه..

- بهذه السرعة؟!

- تدخن؟

- أجل!

- ماذا قلت؟

- قلت: أدخن! أنا أرد على سؤالك، هل من مشكلة؟!

أغاظه هذا الوالد الجديد لكنه لم يظهر مشاعره الحقيقية، في حين تبسم الشاب كأن الرد قد راقه كثيرا!

- «هذا (حازم)، شريكك الجديد في الغرفة، أترككما للتعارف..»

وغادر مسرعا وهو يضغط أزرار هاتفه النقال، فهتف (رَمَّاح) بدهشة متهكمة:

- ما حكايته؟!

رمى (حازم) حقيبته واضطجع عليها قائلا ببسمة لطيفة:

- ضايقك أليس كذلك؟

- كثيرا!

- هكذا والدي، دائما يحرجني أمام الكل كما لو كنتُ صبيا صغيرا..

- يا له من والد!

- يخاف علي ويبغي مصلحتي.. الخ! سبب وجيه للتعاسة! ماذا كنت

تصنع؟ تذاكر؟

- أجل! سيجارة؟

قالها (رمّاح) مقرنا القول بمد علبة سجائره للوافد الجديد وهو يلملم أوراقه بيده الأخرى، فتمتم (حازم) باسما بعبوس:

- لا أدخن.. ولا أحبذ المدخن!

- إذاً فتأثير والدك عليك كان كاسحا.. لا بأس!

نهض الفتى ليبدأ تفريغ حقيبته من متاعها متسائلا:

- هندسة حاسوب.. وحضرتك؟

- أدب إنجليزي!

- تخصص جميل.. لا بأس به بتاتا!

- نريد الشهادة فحسب!

- لا ألومك.. هل بإمكانك إطفاء السيجارة؟ لو تكرمت؟

أرجح (رمّاح) رأسه وهو يطفئ سيجارته بلا حماسة، وأثناء ذلك، تنبه إلى ذاك الذي يشوه عنق شريك غرفته الجديد من الناحية اليسرى أسفل الحنك، حرق عنيف، كذلك على الجبهة، كما لو كان جفنا مغمضا.. كيف لم يتنبه إليه؟

تنبه أيضا إلى أن الفتى يطالعه بنظرات متفهمة، فدمدم بعصبية:

- هل من مشكلة؟

- أحاول إشباع فضولك! إنها حادثة قديمة.. هذا ما يحدث لمن يلهو بالنار! حسبت الغاز مطفئا وأنا أشعل أعواد الثقاب تلك، فكانت النتيجة..

ووضع إصبعا فوق الحرق على جبهته مباشرة..

ثم واصل استخراج متاعه، قائلا:

- على فكرة.. لم أتشرف بمعرفة اسمك؟

- (رَمّاح).. (رَمّاح المُسامِح)..

- تشرفنا! (حازم نافع)، ستتذكرني دائما، فسأكون بئر أسرارك ومرشدك لأفئدة الفاتنات، أنا الصديق المثالي!

راقبه (رَمَّاح) بصمت..

في حين.. نهض هو رافعا كفا مفتوحة الأصابع، تستكشف المجهول.. صاحبها نطق كالحالم موجها إياها كقوس أفقي في الهواء:

- معا سنلج عالما جديدا يا بني! عالما شيقا مثيرا! عالما.. لا كلمات لوصفه! بل ثمة كلمات.. عالم جديد... جديد!

نهاية الجزء الثاني



صدر للكاتب وائل رداد:

رواية: «سأعطيك الحلوى شرط أن تموت» عن شركة المطبوعات - لبنان

رواية: «مذكرات الجرذان الغريقة» عن دار ممدوح عدوان – سوريا

رواية: «سيمفونية وادي الظلال» عن سندباد للإعلام والنشر – مصر

رواية: «موت سريري» عن دار أكتب – مصر ط1 / منشورات ضفاف - لبنان ط2

رواية: «جنازة الملائكة» عن دار رواية – السعودية

رواية: «سيناريو الظلام: أمير الكوابيس» عن دار سما - الكويت

ترجمات: «القصص المنسية» عن دار سما - الكويت

روايات:

«المصعد رقم7»ج1

«التابع الحارس»ج2

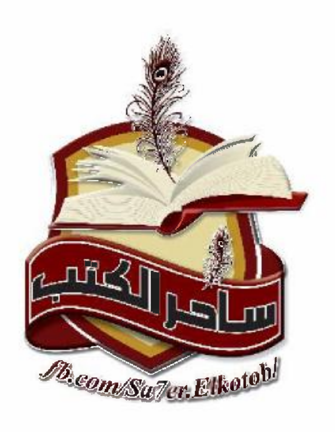
«الهائمون»ج3

«مندوب الشيطان»

«ملاك جهنمي»

«الزيبق»

عن دار بلاتينيوم بوك - الكويت



E Mail: waelnovel@gmail.com